شبهات المستشرقين

حول

مصادر التصوف الإسلامي

عرض ونقد

الدكتورة /ليلى سليمان علي بكر

استاذ مساعد العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

المقدمـــــــــــــــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير قدوة إلى الطريق المستقيم وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين ، وبعد.

فإن التصوف من العلوم الإسلامية الناشئة في الملة ، وقد دار حوله جدل عميق واحتدم على ساحته النقاش وتناولته عقول المسلمين وغير المسلمين من المستشرقين كظاهرة دينية أو تجربة ذاتية من حيث نشأته ، ومصادره ،وأحواله ومقاماته،واختلفت آراء الباحثين في قضاياه من المستشرقين وغيرهم ، وانقسموا حول مسائله إلى آراء متباينة ،ونسبوه إلى ديانات وثقافات متعددة ، واستعمل كل باحثٍ في هذه المسألة من المستشرقين معيارًا خاصًا يزن به مصادر هذا العلم كما كان لكل واحد منهم وجهة وغاية أو ميل ، ولما كان الطريق الوحيد الذى تسلكه المباديء الإسلامية للتغلغل في أصقاع الغرب هو طريق مؤلفات المستشرقين ، وأن الشعوب الغربية وحكوماتها تصدر أحكامها علي الإسلام طبقا لما يبرزه المستشرقون ، هذا فضلا عن أن بعض شبابنا يتلقفون كل ما يرد عن الغرب دون تعقل وتمحيص ،فهذا يستوجب علينا أن نجعل بحوث المستشرقين في العلوم الإسلامية في الصدارة من دراساتنا العلمية ،

ولما كان التصوف من معارفنا الإسلامية فهو جدير بأن نوليه عناية كبيرة ، ومن أهم مسائل البحث الجديرة بالتوضيح والبيان مسألة نسبة التصوف الإسلامي أوالحياة الروحية عند المسلمين إلى ديانات أو ثقافات مختلفة بهدف تشكيك المسلمين في عقائدهم وعباداتهم ، وقد كان ذلك سببًا في اختياري لهذا الموضوع الذي قسمته إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة .

أما المقدمة فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع وسبب اختياره .

والمبحث الأول: تحدثت فيه عن توضيح معني كل من : الشبهة ،الإستشراق ،التصوف، والمبحث الثاني تحدثت فيه عن شبهات المستشرقين حول مصادر التصوف ، واشتمل علي: ١-اشتقاق الإسم ٢-المصدر اليوناني ٣-المصدر الفارسي والهندي ٤- المصدر المسيحي.

والمبحث الثالث :تحدثت فيه عن المصادر الداخلية للتصوف ، و اشتمل علي: المصدر الأول للتصوف الإسلامي وهو القرآن الكريم ، والمصدر الثاني للتصوف الإسلامي وهو السنة النبوية المطهرة ، والمصدر الثالث للتصوف الإسلامي وهو حياة الصحابة .

ثم ختمت البحث بخاتمة بينت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج ،وثبت بأهم مصادر ومراجع البحث ،وفهرس للمحتويات .

المبحث الأول

توضيح معنى كل من :

الشبهة ،الإستشراق ،التصوف

أولا: معنى الشُبْهة في اللغة

الشُبْهة في اللغة:هى ألا يتعين أحدُ الشيئين من الآخر لما فيهما من التشابه عينا كان أومعنى ،وكل ما اشتبه علي الناظر وتردد فيه فهو شُبْهة ،والشُبْهة في العقيدة المأخذ والمُلبَّس، وسميت شُبهة لأنها تشبهُ الحق ،والمشابهة :المشاركة في معنى من المعانى ،واشتبهت الأمور وتشابهت :إلتبست فلم تتميزولم تظهر ([1])

ونأخذ من هذه المعاني اللغوية أن كل معنى فيه التباس اوإشكال بينه وبين معني آخر أويحتمل أكثر من تفسير فالمعنيين متشابهين وليسا متطابقين

والشبهة في الإصطلاح :قيل هي الظن المشتبه بالعلم أومايشبه الثابت وليس بثابت ،أومالم يتيقن كونه حلالاً أوحراماً،فمعني الشبهة فى الإصطلاح يفهم منه الشيء الذى ليس عليه دليل قطعى في ثبوته أونفيه.

الفرق بين الدليل والشبهة :

الدليل والدال في اللغة :هو المرشد والكاشف أومايقتضيه اللفظ عند إطلاقه ،أو

مايتوصل به إلي معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالات الإشارات والرموز والكتابة والإشارةوالعقود فى الحساب ([2])

وفي الإصطلاح :هو البرهان أوالحجة أوالبينة ، والفرق بينه وبين الشبهة أن الدليل لابد أن يكون واضحا فى الدلالة فكل دليل فيه اشتباه أو إشكال فليس بدليل، وكل لفظ مجمل لايفهم منه كامل المعنى فهوشبهة ، والمستفاد من الدليل لابد أن يكون معنى واحدا فإن حصل التردد فليس بدليل ،لأنه يكون بذلك مفتقر إلي غيره والدليل لايفتقر إلي غيره ،بل يثبت الحكم مباشرة ([3]) إذاًالشبهة تختلف عن الدليل فى أن الدليل يفيد اليقين فى الإستدلال،أما الشبهة فلا تفيد ذلك.

---

[1] دات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص٢٥٤ ،المصباح المنيرص٢٤٩

[2] انظر المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ص١٦٧

[3] انظر :مذكرة أصول الفقه للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص٣٢٠ ط مكتبة ابن تيمية القاهرة،التعريفات للجرجاني ص٣٠ ط

وبعد بيان معنى الشبهة والفرق بينها وبين الدليل ننتقل إلى بيان معنى الإستشراق فيما يأتى

* معنى الإستشراق .

تعددت مفاهيم الإستشراق تبعًا لتعدد أبعاده التاريخية والمنهجية ، ومن هذه المفاهيم :

١ - المفهوم الأكاديمي : ويطلق على التخصص في دراسة أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو من بعيد كدراسة الآداب أو اللغات الشرقية ، أو التخصص في سوسيولوجية أو انثروبولوجية الشعوب الشرقية .

لكن هذا الميل القديم لإطلاق مصطلح " الاستشراق " على هذه الدراسات المتعددة المتباينة بدأ في الانحسار إذ لا نكاد نجد عالم (الانثروبولوجيا)([1]) مثلًا الذي يدرس إحدى الثقافات الشرقية يسمي نفسه مستشرقًا على غرار ما كان يحدث في القرن التاسع عشر ، وعلى هذا يكون الاستشراق بالمعنى العلمي الأكاديمي يبدأ في الإختفاء .

٢ - المعنى العرقي : هو أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين المشرق والغرب .

وهذا المفهوم يصطدم بعقبات كثيرة تتعلق بالمنهج العلمي فإن الذين يصنفون تحت هذا التصنيف تأتي كتاباتهم وقد خلت من الالتزام بقواعد المنهج العلمي وتحمل زيفًا وجهلًا وتحاملًا على الإسلام أو نبيه ، فالإلتزام بالمنهجية العلمية لا يتوافق مع المفهوم العرقي للاستشراق ، فهذه العرقية كانت من أهم موضوعات الإستشراق ومدخلًا سهلاً للإستعمار واستغلال الشعوب ، فباسم التمييز العرقي أعلن الغرب وصايته على الشرق واستباح حرماته واستغل ثرواته .

[1] الأنثروبولوجيا :مصطلح مركب من كلمتين يونانيتين (انثروبو)ومعناها إنسان (لوجيا)ومعناها علم اى علم الإنسان، وهو العلم الذى يدرس احوال البشر فى ماضيهم وحاضرهم ،ويؤسس على القواعد المعرفية التي تقوم عليها العلوم الإجتماعية والبيلوجية والإنسانيات مثل التاريخ واللغة انظر علم الإجتماع والفلسفة ص١٩د/قباري محمد اسماعيل

٣ - *المفهوم الإستعماري* : هو طريق لفهم الشرق من أجل السيطرة عليه ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكم فيه [١].

فمن أجل ذلك الهدف الاستعماري درس المستشرقون الشرق سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وأيديولوجيًا وعلميًا وخياليًا ، ومن أجل تلك الرسالة الاستعمارية أصبح الإستشراق يحتل مكانة مهمة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة لدى الإستعمار وميول الغرب الإستغلالية ، ومن هنا كان الإستشراق أداة استعمارية ساهم بشكل واضح في توسيع الصراع بين الشرق والغرب وزج بالإسلام في حلبة الصراع بإثارته لكثير من الإدعاءات الكاذبة كصحراوية الثقافة والعقل السامي والآري ، وادعاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة ليظل الغرب متميزًا ،أو يزداد جشعًا في نهش الشرق

ومن هنا أثار المستشرقون حول الإسلام بصفة عامة والصوفية بصفة خاصة بعض الشبهات أوضحها في المبحث القادم

معنى التصوف: ١- المعنى اللغوي لكلمة" تصوف"

اختلف الباحثون في منشأ كلمة " التصوف " هل هى اسم مشتق أم اسم جامد ، فذهب بعض العلماء إلى أنها اسم مشتق من الصوف نسبة إلى ظاهر لباسهم ؛ لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين ، يقول الطوسي في باب الكشف عن اسم الصوفية ولمَ سُمُّوا بهذا الإسم : (إن سأل سائل فقال : قد نُسب أصحاب الحديث إلى الحديث ، ونُسب الفقهاء إلى الفقه ، فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم ، ولم تضف إليهم حالًا كما أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين والصبر إلى الصابرين ؟ فيقال له : لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ، ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالفًا ومستأنفًا وهم مع الله في الإنتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة ، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسمًا دون اسم ..... ، فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسمًا

[١] أنظر :الإستشراق رسالة استعمار ،تطور الصراع الغربي مع الإسلام ص١٧ دمحمد إبراهيم الفيومي ،ط دار الفكر العربى ١٤١٣هـ /١٩٩٣

مجملًا عامًا مخبرًا عن جميع الأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى –عليه السلام –فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل : « إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ » [1] وكانوا قومًا يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال ، فالصوفية نُسِبوا إلى ظاهر اللباس ولم يُنْسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون .) [2]

ونستخلص من كلام الطوسي أن : اسم " التصوف " مشتق من الصوف ؛ لأن هؤلاء القوم لم ينفردوا بنوع خاص من العلم كما أنهم لم يختصوا بحال من الاحوال أو بمقام من المقامات ، بل جمعوا كثيرًا من العلوم وانتقلوا من مقام إلى مقام والأحوال واردة عليهم دائمًا .

وقيل : إن اسم الصوفية مشتق من الصفاء يقول الكُلَّاباذي :(إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، والصوفي من صفا قلبه ، أو من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته ، ولكن كلمة صوفي لوكانت مأخوذة من الصفاء لكانت النسبة إليها " صفائي " وهي ليست صحيحة من حيث اللغة .

وقال قوم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفَّة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتُرض على هذا الرأي أيضًا بأن التصوف لو كان نسبةً إلى أهل الصُّفَة لتسمى المنتسب إلى هذه الطائفة " صُفِّي " وليس صوفياً.

وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، ولكن لو كانت الكلمة من الصف لكانت النسبة إليه " صَفِّي " وليست صوفيا .

([1]) سورة المائدة : من الآية ١١٢ .

([2]) اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي : لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ، ص ٢٤ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

ومن نسبهم إلي الصف الأول فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم وذلك من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها صفَّى الله سره ونوَّر قلبه . [1]

وقيل إن نسبة الصوفي إلى الصوفان أو الصوفانة وهى نوع من النبات لا يحتاج إلا للقليل من الماء فلما تشبه بها فى اكتفائهم بالقليل من المآكل والمشرب نسبوا إليها ..... إلا أنها غير متوافقة مع أصل الكلمة لأنها لو كانت مأخوذة من الصوفانة لكانت النسبة إليها صوفاني وليس صوفياً .

وهناك رأي يقول : إن اسم التصوف من الأعلام الجامدة ، وهذا الرأي ذكره أبو الفرج بن الجوزي حيث نسب كلمة " تصوف " إلى الغوث بن مر" أحد خدَّام الكعبة في الجاهلية ، الذي أطلق عليه اسم (صوفة) والسبب في ذلك – كما ذكر ابن الجوزي – أن ام الغوث بْن مر لم يكن لها ولد ذكر فقالت : لله علي إن ولدت غلاما لأهبنه للبيت . فولدت الغوث بْن مر فلما ربطته عند البيت أصابه الحر فمرت به وقدْ سقط واسترخى ، فقالت : مَا صار ابني إلا صوفة فسمي صوفة ومن تبعه في ذلك الأمر صوفية.[2]

ويقال : إن هناك قوم في الجاهلية يقال لهم بنو صوفة انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية ، وسواء أكانت الكلمة نسبة إلى الغوث بن مر أو إلى هذه القبيلة المذكورة فهي من الأعلام الجامدة .

وقد وقف العلماء من هذا الرأي موقف الرفض ؛ لأنه غير مقبول من ناحية المعنى فمن المُستبْعد أن تُنْسب هذه الطائفة إلى رجلٍ كان مشغولًا بخدمة بيت الله في الجاهلية أو قبيلة من أهل الجاهلية فهؤلاء القوم سواء " الغوث بن مر " أو قبيلة " بني صوفة " المذكورة إنما كانوا يخدمون بيت الله في الجاهلية أي في جو جاهلي بعيد عن الدين الحقيقي ، أما الصوفية فكانوا في محيط إسلامي خالص . [3]

---

(1) أنظر : التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد الكلاباذي صـ٢٨، ٢٩ . ط المكتبة الأزهرية للتراث . الطبعة الثالثة . ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م.

(2) تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي ، صـ ١٨٠ ، ط دار المنار بالقاهرة ، ط ١ ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ .

(3) المرجع السابق ص ١٨١

وقيل : إن هذا الاسم الأرجح فيه أنه لقب وإلى هذا الرأي ذهب القشيري حيث يقول : « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب " . [1]

وقيل : إنها ليست كلمة عربية وإنما هي محرفة من الكلمة اليونانية " سوفيا " التي تعني الحكمة ، وهذا الرأي بالإضافة إلى أنه لا يتناسب مع الاشتقاق اللغوى للكلمة إلا أنه غير صحيح أيضًا لأن هذه الكلمة عُرفت عند العرب قبل معرفتهم باللغة اليونانية أي قبل عصر الترجمة ، بل إن هذه الكلمة عرفت في العصر الجاهلي كما يرى ابن الجوزي . [1]

* الرأي الراجح :

وأرجح ما قيل من هذه الآراء : أن كلمة التصوف مأخوذة من الصوف، يقال : تصوَّفَ إذا لبس الصوف ،كما يقال : تقمَّصَ إذا لبس القميص فالنسبة إليه صحيحة من الناحية اللغوية ، ولأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء(عليهم السلام) والصديقين وشعار المساكين المتنسكين ، وقد رجح هذا الرأي ابن خلدون في قوله : « والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف ، وهم في الغالب مختصون بلبسه » . [2] ، فقد كانت كلمة صوفي منذ زمن مبكر تعني الزاهد في حطام الدنيا الراضي بالقليل ، النافر من الزينة ومظاهر الحياة ، يؤيد ذلك قصة محمد واسع بن قتيبة الباهلي فقد دخل محمد على قتيبة وعليه مدرعة صوف خشنة وربما بالية ، فقال له قتيبة : ما يدعوك إلى لبس هذا ؟ فسكت ولم يجِر جوابًا ، فقال له قتيبة فيما ينتابه الغضب : أكلمك فلا تجيبني ؟ فأجاب محمد في هدوء : أكره أن أقول زهدًا فأذكي نفسي أو أقول فقراً فأشكو ربي فقد كان محمد بن واسع بإجابته الصادقة هذه معبرًا تعبيرًا صادقاً عن هذا النمط من العُبَّاد والزهاد القانعين الذين يرغبون عن زينة الحياة الدنيا ، ومن ثم فإن اختيار هذا الاسم للمتصوفة قد جاء مشتقًا من الصوف متصلًا به اتصالًا لفظيًا ومعنويًا ...

ولكن ليس معنى ذلك أن لبس الصوف دلالة على الزهد والتقرب إلى الله تعالى أن يكون الجنوح عن لبسه بعدًا عن الله تعالى وانغماسًا في الشهوات ذلك أن التدين في وقار، والتطيب في قصد

([1]) انظر : المنقذ من الضلال للإمام الغزالي : تحقيق : د / عبد الحليم محمود ، صـ ١٧٠ ، تلبيس إبليس :لابن الجوزي صـ ١٨٠ .
([2]) المقدمة : صـ ٥٠٥ .

والتأنق في غير إسراف أمور ترفع من قدر المرأ في ظل دينه وخلقه ومروءته ، ولكن القوم استحسنوا أن يجعلوه علامة للتقشف ورمزًا للزهد وهم قد قصدوا الصوف الخشن قصدًا [1] . فنسبة الصوفي إلى الصوف قد روعيت فيه صفات الجفوة والخشونة الملموسة في الأنسجة البدائية القديمة ، فكان الصوف خشن له وبر شائك وهو يختلف تمامًا عن لباس الصوف في عصرنا الحاضر .

* التعريف الاصطلاحي للتصوف :

تعددت التعاريف الاصطلاحية للتصوف تبعًا لتعدد التجربة الشخصية والأحوال والمقامات لكل صوفي ، وأيضًا تبعًا للبيئة أو للمرحلة أو للثقافة التي اختلفت عند كل جماعة منهم ، وقد حاول العلماء أن يرتبوا هذه التعريفات تبعًا لهذه الاتجاهات والمشارب ، فاهتم جماعة منهم بإظهار دور التصوف في تقويم الأخلاق ومن أمثلة ذلك :

يقول أبو الحسن النوري ت " ٢٢٥ هـ " : « التصوف ليس رسمًا ولا علمًا ولكنه خُلُق ،لأنه لو كان رسمًا لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علمًا لحصل بالتعليم . و لكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » .

وحول إظهار هذا المعنى الأخلاقي تدور كثير من تعريفات التصوف ومنها :

قول بشر الحافي : " الصوفي : من صفا قلبه لله " .

وقال أبو بكر الكتاني ت " ٢٢٣ هـ " : « التصوف خُلُق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء » .

ويقول أبو محمد الحريري ت " ٣١١ هـ " : التصوف هو الدخول في كل خُلُق سَني والخروج من كل خلق دَني .

([1]) انظر : إسلام بلا مذاهب: صـ ٥٠٦ ، د / مصطفى الشكعة ط الدار المصرية اللبنانية ط ١٣ ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

ويقول أبو الحسن النوري ت " ٢٩٥ هـ " : « ليس التصوف رسمًا ولا عِلْمًا ولكنه خُلُق ؛ لأنه لو كان رَسمًا لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علمًا لحصل بالتعليم . و لكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » . [١]

وسئل محمد بن علي القصاب وهو أستاذ الجنيد عن التصوف ما هو؟ قال : أخلاق كريمة ظهرت في زمن كريم من رجل كريم مع قوم كرام.[٢]

وقد اعتمد فريق من الصوفية على جانب التقشف والزهد في متع الدنيا وربط بين تلك الأشياء والتصوف – ومن هذه التعريفات :

إن الصوفية هم قوم تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الإخوان وساحوا في البلاد وأجاعوا الأكباد وأعروا الأجساد ، ولم يَأْخُذُوا من الدنيا إِلَّا مَالا يجوز تَركه من ستر عَورَة وسد جوعة .)

ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية ؛ لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسه وحسُن منظره ، ولبسوا لستر العورة فتجذَّوا بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف .

وحول هذا المعنى يقول سهل بن عبد الله التستري في تعريفه للتصوف : (إنه قلة الطعام والسكون إلى الله والفرار من الناس .)

ويقول السري السقطي في وصف الصوفية : أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى وكلامهم كلام الخرقى . [٣]

ويقول سمنون وقد سئل عن التصوف : « ألاَّ تملك شيئًا ولا يملكك شيء » .

ويقول أبو الحسن البصري ت " ٣٧١ هـ " الصوفي : من إذا فنى عن أفات الدنيا لم يرجع إليها ، ومن إذا ولَّى وجهه نحو الخلْق لم يتحول عنه، وليس للحوادث أثر فيه

---

(١) انظر هذه التعريفات في : التعرف لمذهب أهل التصوف : صـ ٣٢ : ٣٥ ، اللمع للطوسي: صـ ٢٥ : ٢٨ ، في التصوف الإسلامي وتاريخه: صـ ٣٩ : ٤٠ .

(٢) انظر اللمع للطوسي : صـ ٢٦ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف صـ ٢٧ ، ٢٨ .

وقال رويم : « التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار » . [1]

وعلى الرغم من أن هذه التعاريف تدور حول الزهد في الدنيا والبعد عن متاعها وأن هذا يعبر عن الوصف أو السَمْت العام للصوفي كما هو معلوم عنه ، إلا أنه لا يعتبر تعريفًا كاملًا لهذا العلم ؛ لأن التصوف لا ينحصر فقط في الزهد في الدنيا والإعراض عن زخارفها : يقول د / عبد الحليم محمود : « وما من شك في أن الصوفي لا يتعلق بالدنيا ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد في الدنيا شيء والتصوف شيء آخر، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهدًا أن يكون التصوف هو الزهد » [2] . ولذلك نجد أن هناك تعريفات أخرى وردت للتصوف تُظهر جوانب أخرى غير الزهد ضمن تعريفاته التي تتصل بمحاسبة النفس قول أبي بكر الشبلي " ت ٣٢٤ هـ " : « التصوف هو ضبط القوى ومراعاة الأنفاس »، ويقول أبو الحسن النوري : التصوف هو ترك كل حظٍ للنفس : وفي معنى الصفاء يقول أبو بكر الكتاني : التصوف صفاء ومشاهدة .

ويقول عبد الله بن محمد المرتعش " ت ٣٢٨ هـ " : الصوفي من صَفَتْ نفسه من جميع البلايا . ويقول بشر الحافي " ت ٢٢٧ هـ " : الصوفي من صفا قلبه لله . [3]

ومن تعريفات التصوف التي تشير إلى جانب العبادة والطاعة وتدل على أن الصوفي هو الذي يكثر من طاعة الله وعبادته قول عمر بن عثمان المكي في تعريفه للتصوف : « أن يكون العبد في كل وقت مشغولًا بما هو أولى في الوقت » ، وهو المعنى الذي أكد عليه أبو حفص النيسابوري " ت ٢٧٠ هـ " في قوله : « التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول » .

ويقول أبو جعفر الخلدي " ت ٣٤٨ هـ " : « التصوف طرح النفس في العبودية والخروج من البشرية والنظر إلى الحق بالكلية » .

---

(١) الرسالة القشيرية : جـ ١ . صـ ١٤٨ .

(٢) قضية التصوف ، المنقذ من الضلال . د / عبد الحليم محمود . صـ ٤٠ ط دار المعارف .

(٣) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه : صـ ٣٦ ، ٣٧ ، عوارف المعارف : للسهروردي صـ ٤٠ .

ومن خلال هذه النماذج من التعريفات الواردة في معنى التصوف يمكننا أن ندرك ما ينطوي عليه التصوف من المعاني الاخلاقية السامية والأحوال النفسية العالية ومحاسبة النفس والإقبال على الله، والإلتزام بطاعته إلى آخر ما تنطوي عليه هذه التعريفات من تلك المعاني .

كما يمكننا أيضًا القول بأن الصوفية لم يتفقوا على تعريف واحد للتصوف وذلك لاختلاف مواقفهم منه ؛ لأنهم يرون أنه يشتمل على أحوال ومقامات ويتضمن أخلاقًا ، ويهدف إلى سلوك الطريق الموصل إلى الله تعالى وفقًا للإجتهادات الخاصة التي يتخذها كل منهم في هذا السبيل ... ومن هنا ظهر الاختلاف في اصطلاحات الصوفية والذي يعللونه بأن تعبيراتهم وجدانية ذوقية ، ولا يمكن التعبير عنها إلا لمن شارك في تذوقها، وهذا ما دعا ابن خلدون إلى القول بأن التصوف ليس بعلم يمكن التعبير عنه ، لأن العلم الذي يعبَّر عنه إنما هو العلوم الاصطلاحية الكسبية أما الوجدانية فلا . [1]

[1] انظر أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء السنة: صـ ٦٠ د / مصطفى حلمي ط دار الدعوة بالإسكندرية.

المبحث الثاني

شبهات المستشرقين حول مصادر التصوف الإسلامى

ويشتمل على :

١ – شبهة اشتقاق الإسم

٢ – شبهة المصدر اليونانى

٣ –شبهة المصدر الفارسى والهندى

٤ – شبهة المصدر المسيحى

* تمهيد :

ظلت مسألة التصوف الإسلامي مثار جدل وخلاف بين الباحثين منذ أواخر القرن الماضي وحتى الآن ، فمن الباحثين من أرجع نشأة التصوف إلى عوامل داخلية وأقام الأدلة والحجج على أنه ثمرة من ثمار الإسلام ولا يحمل في ثناياه أي مؤثر بعيد عن الإسلام ، ومن ثم ينبغي أن تفسَّر قضاياه في ضوء نصوص القرآن والسنة وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم في حياتهم وعباداتهم ، ومنهم من قال : إن التصوف في صميمه حركة بعيدة عن روح الإسلام أتت إلى المسلمين من الفرس أو من الهند عن طريق الفرس ، ومنهم من قال : إن هذه الحركة استمدت أصولها من الرهبنة المسيحية التي وصلت إلى المسلمين وهي تحمل في ثناياها ما تحمل من أفكار الأفلوطينية الحديثة، والأفكار الغنوصية والرواقية التي كانت منتشرة في مصر والشام عند الفتح الإسلامي " . [1]

وهذا الخلاف الذي نراه هو وليد الخلاف بين أنصار التصوف وبين معارضيه ، فأنصار التصوف يردون التصوف أو يحاولون رد أقوال وعبادات الصوفية إلى الإسلام ، أما معارضيه فيحاولوا رد التصوف أو أقوال الصوفية وعباداتهم إلى أصول أخرى غير الإسلام .

وعلى الرغم من أن الحركة الروحية في الإسلام قد بدأت مع مرحلة ظهور الإسلام الأولى و قامت على أصول إسلامية فقد ذهب بعض المستشرقين ومن ساروا على نهجهم إلى نسبة الحياة الروحية في الإسلام إلى مصادر أجنبية بِعيدة عن نصوص الإسلام ومنهج المسلمين الأوائل في العبادة والتقرب إلى الله تعالى نذكر منها ما يلى :

شبهة المصدر اليونانى :-

حاول بعض المستشرقين الألمان في بحثهم عن مصدر التصوف تحليل لفظ "تصوف" لغويا للوصول إلى معرفة أصله ومنبعه وفى مقدمه هؤلاء "هوفون هامر " حيث حاول التعرف على

([1]) في التصوف الإسلامي وتاريخه : رينولد نيكولسون ص٠٧
ط مطبعة الأتراك القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٢م

أصل هذه اللفظة هل أتت من اللغة اليونانية أو اشتقت من اللغة السنسكريتية ، أو هي عربيه ؟ فإن كانت قد أ خذت من اليونانية فأصل التصوف يوناني , وإن كانت أخذت من "الجينوطوفيه "أي :الحكيم الهندي العاري , فأصل التصوف هندي وإذا كانت مأخوذة من العربية، فأصل التصوف عربي إسلامي(١).

فقال :(كان الصوفية ينُسْبون إلى الهنود القدماء المعروفين بإسم الحكماء العراة ، وأن الكلمتين العربيتين "صوفي وصافى " مشتقتان من نفس الأصل الذى اشتقت منه الكلمتان اليونانيتان "سو فوس " و"سافيس"، وقد تابع بعض معارضي التصوف "هوفون هارمر" في هذه المسألة إذ يقول : د/ محمد ياسر شرف " على الرغم من اختلاف الآراء في أصل كلمة " صوفي " والمذاهب التي وضعت لردها إلى مورد دون آخر ، فإني أرجح أنها وجدت في العربية قبل الإسلام ، وقد استحدثت من اليونانية من اللفظة "سوفس" التي تعنى : صافى أو واضح أو متميز , أو ظاهر , ... وأرى أن تسمية "صوفي " قد اطلعت بمعنى الشخص الانتقائي الذى يعمد الى القيام بسلوك معين يتصف "بالحكمة " ويؤكد هذا الإتجاه جملة المعلومات التي وصلتنا عن العرب قبل الإسلام , ولا سيما المتعلقة بعادة " التحنث " أو " التحنف"(٢).

ويحاول أصحاب هذا الرأي تأكيد كلامهم بقولهم: إن مادة "صفو" تأتى في اللغة العربية بمعنى " نقيض الكَدَر" وتكون النسبة إليها "صَفَوي " فإذا رققت الصاد المضعفة وأُبْدلت الضمة واواً وأُدْغمت الواو الثقيلة بالإمالة في الياء صارت اللفظة " الصوفي " وبناءاً على ذلك يمكن أن يقال "فيلصوف "أو "فيلسوف "للدلالة على محب الحكمة في مقابل "صوفي " أو "سوفي " للدلالة على "السالك" إلى العقل الحكيم ، ويبدوا هنا التكلف واضحاً في محاولة رد الكلمة إلى اللغة اليونانية لإثبات الأصل اليوناني للتصوف الإسلامي(٣).

والرد على هذه الشبهة يمكن إجماله من وجوه متعددة من ذلك :

١- هذه الشبهة قديمة ذكرها "أبو الريحان البيروني " محاولا إيجاد نوع من العلاقة بين

---

(١) راجع نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام د| على سامى النشار ج٣ص٢٣ دار المعارف.

(٢) حركة التصوف الإسلامى: ص ١٠ دا محمد ياسر شرف ، ط الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

(٣) انظر :التصوف الإسلامي بين انصاره وخصومه ، ص ٢٤ داعبد الرحمن المراكبي.

التصوف الإسلامي والفلسفة وذلك في قوله :" إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها ، وإن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الأول فقط ، وهذا رأى السوفية وهم الحكماء، فإن "سوف " باليونانية تعنى الحكمة ، وبها سمى الفيلسوف "بفيلا سوفيا" أي محب الحكمة ، ولما ذهب في الإسلام قوم قريب إلى رأيهم سموا بإسمهم ، وإن التصحيف دخل في الإسم بعد ذلك فقال مفسرا ومعللا : ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى الصفة ، وإنهم أصحابها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ثم صحف بعد ذلك فصير من صوف التيوس(١).

وفى توضيح الرد عليها يقول د/ عبد الحليم محمود : إن هذا اللفظ نشأ في الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية وعرف معناها وتداولتها الألسنة ولاكتها الأفواه، وأَلِفَتْ معناها العقول مع إن الكلمة عرفُت قبل ذلك بكثير فالتسمية بالصوفي كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية(٢).

٢- ما الذى يمنع أن يكون الأمر بخلاف ذلك – كما يقول د/ ذكى مبارك – بمعنى أن تكون كلمة " تصوف " العربية هي التي اقتبست منها كلمة "سوفيا" اليونانية وليس العكس، خاصة وأن كلمتي " تصوف " و " صوفية " عرفتا عند العرب فى عصرهم الجاهلي ولا يبعد أن تكون هذه الكلمة قد رحلت من بلاد العرب إلى بلاد اليونان فكانت "صوفي " و"تصوف" عند العرب وكانت "سوفيا" عند اليونان. (٣)

والدليل على وجود هذه الكلمة عند العرب في العصر الجاهلي الرأي الذى ينسب كلمة التصوف إلى "الغوث بن مر" وإنما سمى الغوث بن مر صوفة ،لأنه ما كان يعيش لأمه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ، ففعلت ، فقيل له : صوفه ولولده من بعده،..... وقيل إن والدته لما ربطته عند البيت اصابه الحر فمرت به وقد سقط واسترخى فقالت ما صار ابنى إلا صوفة

---

(١) أنظر: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، ج١ ص ٢٤، ٢٥

(٢) المنقذ الضلال: د/ عبد الحليم محمود ص ٣٠ دار المعارف .

(٣) انظر : التصوف فى الأدب والأخلاق : د/ ذكى مبارك، ج ١ ص ٦٦

إن الكلمة اليونانية " سوفس" التي حاولوا فيها المعادلة أو المساواة في المعنى بين "فيلوسو فيا" و "تصوف " ردها المستشرق الألماني "تولدكه" مبينا أن السين تكتب باطراد في اللغة العربية سيناً لا صاداً ، وإن ليس في اللغة الآرامية كلمة متوسطة للإنتقال من "سوقوس " اليونانية الى "صوفي "العربية[١]

إنه قد ورد في معانى هذه الكلمة من حيث اللغة أنها كاللقب على هذه الجماعة ،لأن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ أو اشتقاق ، يقول القشيري: "ولا يشهد لهذا الإسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهرأنه كالقب "

وإذا قيل بالاشتقاق فالأظهر أنه من الصوف كما قال الكلابازى – بعد أن ذكر الإشتقاقات الواردة في هذه الكلمة – "وإن جعل مأخذها من الصوف استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة "[٢]

وإذا كان الصوف لباس اشتهر به غير الصوفية أيضا إلا أنه كان الغالب في لباسهم.

ومن شبهات المصدر اليوناني أيضا

أن تصوف اليونان وجد سبيله الى العالم الإسلامي وخاصة أفكار ونظريات "أفلاطون وأفلوطين" وذلك بطرق مختلفة أهمها : مدارس "الرها" و "نصيبين "و"حران" و"أنطاكية" و"الإسكندرية" فهذه المدارس كانت معالم للثقافة اليونانية وقد نشأت بالإسكندرية مذاهب فلسفية كثيرة منها "الفيثاغورية المتأخرة"و"الأفلوطينية الحديثة " وكان لهذه الفلسفة أثراً ملحوظا في التصوف الإسلامي ففي التصوف الإسلامي "الفلسفي " الكثير من الأفكار والنظريات التي تعود إلى هذه الفلسفة. [٣] يقول "جولد تسهير"[٤] عن تأثير تعاليم مذهب "أفلوطين"فى التصوف : "هذا التيار

---

(١)انظر : المنقذ من الضلال ، د/ عبد الحليم محمود ، ص ٣١٤ / ٣١٥

(٢)التعرف لمذهب أهل التصوف :لأبى بكر محمد الكلاباذى، ص ٣٢ ط المكتبة الأزهرية للتراث.

(٣)التصوف الإسلامي بين أنصاره وخصومه: ص٩٩

[٤] مستشرق مجري من أسرة يهودية ولد سنة ١٨٥٠م في مدينة (أشتولفيسنبرج) من أسرة يهودية ذات مكانة وقدر كبير،قضي السنين الأولي من دراسته في بودابست ثم ذهب إلي برلين سنة ١٨٦٩م، ثم انتقل إلي جامعة ليبيتك وحصل على الدكتوراه الأولى سنة ١٨٧٠م،ثم عين مدرسا مساعدا في جامعة بودابست سنة ١٨٧٢م ، ثم ارتحل إلي الشرق سنة ١٨٧٣م فأقام بالقاهرة مدة ثم سافر إلي سوريا

الفلسفي قد أوجد أساسا فلسفيا واعتقاديا بنيت عليه تقاليد الزهد وطقوسه ، فالزاهد المتصوف الذى نبذ الدنيا واحتقرها وطرحها وسما بروحه إلى الكائن الأعلى والملاذ الأوحد يجد ما يثبت يقينه بمنهج حياته الذى نهجه وما يقوى نزعته الروحية الإلهية في مذهب الفيض عند أفلوطين ونظريته في وحدة الوجود"[١] ويذكر "نيكلسون"أيضا أن فلسفة أفلوطين قد عرفها المسلمون وتأثروا بها في مذاهبهم الصوفية ,فإذا كان أرسطو هو الشخصية البارزة في الفلسفة الإسلامية وقليلون من المسلمين يعرفون اسم "أفلوطين "،لكن العرب اكتسبوا معرفتهم "لأرسطو" عن طريق شراحه من رجال الأفلوطينية الحديثة ، ولم يكن كتاب "الربوبية "المنسوب "لأرسطو" الذى ظهرت له ترجمة عربية فى القرن الثالث الهجري غير مختصر للأفلوطينية الحديثة وإن الأفكار الصوفية الإغريقيه كان يعب بها الجو يومئذ ، وكان الوصول إليها سهلا ميسورا على السكان المسلمين في آسيا و في مصر وإذا أضيف إلى هذا أن أكثر آراء ذو النون المصري تتفق مع كتابات "ديونسيوس"، جرنا ذلك حتما إلى الجزم بأن الافلوطينية الحديثة قد صبت على الإسلام صبغة من العنصر الصوفي عينه الذى صيغت به المسيحية من قبل [٢]

ويؤكد "جولد تسهير" على وجود الأثر اليوناني في التصوف الإسلامي بإستشهادة بأن الباحثين الإنجليز وخاصة الأساتذة "هوبنفيلد" و"برون" و"ينكلسون" الذين قاموا بدراسة التصوف الإسلامي وجعلوا من أصله ونموه موضوعا لدراسة عميقة مستفيضة قد أبرزوا بطريقة دقيقة طابع الفلسفة الأفلوطينية الحديثة في التصوف الإسلامي. [٣]

ومن الشواهد على وجود هذا الأثر في التصوف الإسلامي أن هناك الكثير من الأفكار والنظريات التي تعود في أصلها إلى هذه الفلسفة منها:- نظرية وحدة الوجود "وترجع هذه النظرية في أصولها الأولى إلى الفلسفة الطبيعية قبل سقراط وكانت هذه الفلسفة ترى أن الله هو الطبيعة أو أن الطبيعة هي " الله" وقد انتقلت هذه الفكرة إلى الأفلوطينية الحديثة التي ترى أن النفس الانسانية تعود دائما في حالة الكثرة والتبدد إلى حالة الوحدة المطلقة التي تكون فيها النفس في

وفلسطين ، ومنذ أن عين في جامعة بودابست وعنايته بالدراسات العربية عامة والإسلامية خاصة تنمو وتزداد ٠ (انظر :موسوعة المستشرقين د/ عبد الرحمن بدوي ص ١٩٨ ،ط دار العلم للملايين بيروت ط٣ ١٩٩٣م)

[١] العقيدةو الشريعة ف الاسلامص ١٥٣،١٥٤

(٢)ا لصوفية في الإسلام: ص٢٤، ٢٥

(٣)الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت : ص ١٥٨.

حال الفناء والمحو حتى يصبح الإنسان كأنه "الله" أو هو "الله" بالفعل وقد تأثر بهذه النظرة بعض الصوفية كأبن عربى الذى ورد عنه قوله: سبحان من خلق الأشياء وهو عينها .

٢- المعرفة الاشراقية :-

وهى معرفة ترد على النفس مباشرة من الملأ الأعلى من غير أن تتطلبها النفس وهى تُلقى في النفس إلقاءاً عند استعدادها لقبول الفيض الإلهي يقول "أفلوطين"يجب علىَّ أن أحجب عن نفسى النور الخارجي لكى أحيا وحدى ، وحدى في النور الباطن إن النفس التي لا تُضاء بضوئه تظل بغير رؤية ,فإذا اضِّيئت فإنها تحتوى على كل ما تنشده فترى الأسمى بالأسمى كما أننا نرى الشمس بضوء الشمس .

وجاء بعد "أفلوطين" تلاميذ له وأنصار لمذهبه مثال "كليمنت "و"أوريجانوس" وكان لهم الأثر الواضح في امتداد هذه الفكرة إلى دوائر كثيرة منها الدوائر الصوفية في الإسلام ، هذا إلى جانب ما نجده لدى الصوفية من عناية بالأعداد والحروف والرموز وما ترمز إليه أو تشير إليه ، وهذا هو ما تميزت به الفلسفة "الفيثاغورية " إلى جانب اتجاهها الباطني ، مما يمكن أن يشهد بوجود أثر فيثاغورى في الاتجاه الصوفي في الإسلام .

ويمكننا الرد على أصحاب هذا الرأي بما يأتي :

نحن لا ننفى تأثر بعض الصوفية بالفكر الفلسفي اليوناني وخاصة الأفلوطينية المحدثة وخاصة فى جانب المعرفة ، ولكن تأثير الأفلوطينية فى جانبها المعرفي على التصوف الإسلامي كان محدوداً ، وكان عند متفلسفة الصوفية بوجه خاص الذين بالغوا فى الحديث عن تجريد النفس من البدن واتصالها بالملأ الأعلى أو بالعقل الفعال ، أما غير هؤلاء فقد كان مصدرهم فى المعرفة إسلامياً عن طريق العلم اللدنى الذي تحدث عنه القرآن الكريم أو شفافية النفس فليس من الإنصاف بعد ذلك أن نغالي فى تأثير الأفلوطينية وتعزو إليها الجانب المعرفي فى التصوف

الإسلامي ، لأن " الإلهام " فيما يتعلق بالمعرفة موجود فى الإسلام . (١) وإذا أُريد أن يُتْخَذ من الفلسفة اليونانية عموماً والأفلوطينية المحدثة خصوصاً مصدراً لبعض العناصر والمذاهب الصوفية فإن ذلك كان فى القرن السادس الهجري وهو القرن الذي تقع فيه حياة ابن عربي ومن سار على دربه من أصحاب التصوف الفلسفي ، وإذا ما قيل إن مثل هذه الأفكار ظهرت فى وقت متقدم على وجود ابن عربى وأمثاله مثل ما ورد عن أبى يزيد البسطامى وذي النون المصري .

يجاب على ذلك بأن هذه العناصر كانت محدودة جداً ولم تنتشر بين الصوفية ولم تتأثر بها أذواقهم ، ومذاهبهم بشكل واضح إلا فى القرن السادس الهجري في التصوف الفلسفي (٢)

وقد قام العلماء بالرد على هذه النظريات الفلسفية من أشهرهم "ابن تيمية "و "ابن خلدون " الذى انتقد بشده هذه التيارات الفلسفية الصوفية ونظريات التصوف الفلسفي في الحلول والاتحاد والوحدة الوجودية أو الشهودية ، كذلك أصحاب نظريات الفيض المعرفي أو الصدور الروحاني ووصف أقوال هؤلاء الصوفية في الوجود والصدور والتجلي وغير ذلك بأنها أقوال في غاية السقوط. (٣).

٢- ***المذاهب الهندية والفارسية*** :-

ذهب كثير من المستشرقين إلى القول بنسبة التصوف الإسلامي إلى أصول هندية وفارسية يقول "جولد تسهير" عند إلقاء نظرة عامة على تاريخ التصوف لايمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات بصفتها عوامل ذات أثر نافذ وأقصد بها المؤثرات الهندية التي بدت بصورة محسوسة منذ العصر الذى انتشر فيه الإسلام شرقا حتى حدود الصين فتخطفت افُقه تدريجيا تلك الآراء الهندية التي ظهر بعضها في الآثار الأدبية والبعض الآخر في الفكر الديني الإسلامي .....والفكرة الدينية المسماة بالزهد التي صادفت الإسلام السنى والتى لا تتفق مع السمات المألوفة التي نعرفها فى

---

(١) انظر الحياة الروحية فى الإسلام : ص٦١

(٢) أنظر : الحياة الروحية فى الإسلام، ص ٦١

(٢) التصوف الإسلامي نشأته ومذاهبه: ص٧٢

التصوف الإسلامي نكشف عن آثار قوية تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى الإسلام . [١]

وأخذ يعطى الأمثلة على أثر البوذية في الزهد من أقوال شاعر من الزنادقة وهو "أبو العتاهية "حين يقول :-

يا من ترفع للدنيا وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين

إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك فى ذي مسكين .

ويرى جولد تسهير" أن هذا ليس إلا بوذا . [٢]

كما يستدل "جولد تسهير " أيضا على تأكيد رأيه في تأثر التصوف الإسلامي بالأفكار الهندية بقوله "ويمكننا أن ندلل على أثر البوذية بكثرة ما ورد في المؤلفات الصوفية من الاستشهاد بمثال الملك القوى الذى يذر ملكه الدنيوي بعيدا نابذا العالم وما فيه ويقصد بذلك الملك "بوذا" ثم يقول ومن الشواهد القوية التي ينبغي أن تعد قاطعه في الموضوع الذى نعالجه : إن قصة أحد أئمة الصوفية الكبار في الإسلام تشبه السمات البارزة في سيرة بوذا وهى قصة الولي "إبراهيم ابن أدهم" المتوفى فيما بين سنتي ١٦٢,١٦٠ هجريا وكيف ترك هذا الصوفي البلخى مُلك أبيه وثروته وهجر قصر أبيه وآوى إلى الصحراء حيث عاش سائحا عابدا . [٣]

كما يؤكد على أن فكرة الإتحاد والحلول ووحدة الوجود وإن كان الصوفية قد أخذوها من الأفلوطينية الحديثة إلا أنهم بفضل تأثرهم بالأفكار الهندية قد تخطت هذه الأفكار عندهم الصورة التي إنتحلتها من الأفلوطينية الحديثة ، كما يرى كل من "ريتشارد هارتمان " و "ماكسى هورتن " أن التصوف يستمد أصوله من الفكر الهندي , فقد كتب "هورتن" في سنتي ١٩٢٨م ١٩٢٧ مقالتين حاول أن يثبت في إحداهما بعد تحليله تصوف الحلاج والبسطامي والجنيد – أن التصوف الإسلامي في القرن الثالث الهجري كان مشبعا بالأفكار الهندية، وينتهي فى المقالة الثانية إلى

---

[١] العقيدة و الشريعة في الإسلام ص١٥٨،١٥٩

(٢)العقيدة والشريعة في الإسلام: ص١٥٩

(٣)المرجع السابق، ص١٦١

القول بأن التصوف الإسلامي هو بعينه مذهب (الفيدانتا) الهندي وأن هذا المذهب وصل إليه عن طريق ميترا ومانى ، كما يذكر أن فكرة المحاسبة التي نراها عند الحارس المحاسبي ذات أصل هندي كما أن فكرة الرضا فكرة بوذية الأصل ، واستعمال الزهاد للمخلاة في سياحتهم واستعمالهم للسبح عادتان هنديتان

ويقرر "نيكلسون" أن البوذية سادت خراسان وفارس الشرقية قبل الفتح الإسلامي بألف عام ويرى أنه لابد إذاً أن تؤثر في نمو الصوفية في هذه الأرجاء . [١]

والرد على هذه الشبهة يكمن توضيحه بشكل عام يتمثل فى الأتي:-

أننا ينبغي أن نعرف أولا أن الصلات التي نشأت بين العرب من جانب وبين الهند والفرس من جانب آخر قبل الإسلام رغم الإختلاط الدائم بينهم عن طريق التجارة إلا أن التاريخ والمأثور عن الجاهليين من حِكَم فطرية كلها فَلتَّات الطبع وثمار الخاطر، ومن ثم لا يصححان الحكم بأن العرب قد استفادوا من فلسفة الهند استفادة تتسم بالدقة في التحليل والتعليل , ولم يتركوا لنا بحوثا في المشكلات الميتافيزيقية أو الأخلاقية أو النفسية

أما بعد الإسلام فكان الإقبال على الدين الجديد هو شغل المسلمين الشاغل وقد تغلبت عقائده ومبادءه على غيرها ، فالإسلام كان أحظى لدى أهله ، والمسلمين كانوا أعز جانبا وأروع مستوى من أن ينساقوا وراء غيرهم . [٢]

٢- إن المسلمين لم يعرفوا ما للهند من ثقافات وديانات إلا من خلال كتابين الأول:- يسمى " إكمال الدين وإتمام النعمة " وهذا الكتاب كتب في أواسط القرن الرابع الهجري .

والثاني :- كتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " وهذا الكتاب ألف في بداية القر ن الخامس الهجري .

---

(١)انظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ح، ط.

(٢) أنظر: موسوعة التصوف الإسلامى ،ج ١ ص ٣٨٦ د/ عبد الله الشاذلي دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين د/ محمد الغزالي ص ١٥٤

ومعنى هذا أن المسلمين لم يدرسوا آراء الهنود إلا في أواخر القرن الرابع الهجري إن صح أن انتشار المؤلفات كان سريعا أما إذا تقرر أن الكتابيين قضيا فترة عند أصحابهما حتى خرجا إلى النور وهذا هو الغالب فلابد أن تكون المعرفة بفلسفات الهنود قد تأخرت هي أيضا عن أواخر القرن الرابع الهجري وسواء صح هذا أو ذاك فالحقيقة شاهدة بأن التصوف في تلك الفترة قد قام وتطور وتشكلت أهم نظرياته ورسومه وأذواقه ، وإلا ما صحت الموازنة إذ لا يعقل موازنة بين شيء سيجد وسيتأثر وهو التصوف ومن شيء موجود وهو الحكمة الهندية فإذا ظهر لنا تشابه بين ثمار العقول والقلوب عند الصوفية وبين ما انتجته حكمه الهنود فإن مرجع ذلك إلى التوافق الفطري بين الأُمتين في طرائق التفكير.(١)

وقد لاحظ "الشهر ستانى"هذا التوافق الفطري بين الهنود والعرب في قوله " إن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية ".(٢)

فالتشابه بينهما يجوز أن يكون تشابهاً شكلياً صورياً لا تشابها حقيقيا.

وقد لاحظ ذلك المستشرق "نيكلسون " وذلك في بيانه الفرق بين "النرفانا" الهندية والفناء الصوفي بقوله "ولسنا نوحد الفناء والنرفانا من كل وجه ،لأن كلا الإصطلاحين لا يدل على فناء الشخصية ، بل إن النرفانا سلبيه خالصة ، والفناء يصحبه البقاء وانجذاب الصوفي الذى تعرى عن نفسه في التأمل الإنجذابى للجمال الرباني معارضة تماما للهدوءالعقلي الخالي عن الشعور " (٣)

أما الرد التفصيلي فيظهر في النقاط التالية :-

١- إن حركة الزهد بدأت بين المسلمين منذ عصر مبكر في عهد البنى صلى الله عليه وسلم اقتداءاً به في عبادته وأُسلوب حياته وكان أمام المسلمين نصوص كثيرة من القرآن والسنة تدعوا إلى الزهد فتابعوا هذه النماذج ، حقا لقد نقل إلى العربية في القرن الثاني الهجري بعض الكتب

---

(١) أنظر: موسوعة التصوف الإسلامي، ج١ص ٣٨٨ د/ عبد الله الشاذلي

(٢) الملل والنحل، ج ١ ص ١٣

(٣) الفلسفة الصوفية فى الإسلام: ج ٣ ص ٥٣

وأن هذه الكتب أثرت في بعض فلاسفة الصوفية المتأخرين "كابن سبعين" كما إن السمنية قد عرفت في وقت متقدم في العالم الإسلامي وحاربها الفقهاء والمتكلمون والصوفية المعتدلون ولكن ،هذا المستشرق اليهودي " جولد تسهير" ذهب إلى الحكم على حياة الزهد التي اشتهر بها معظم المسلمين الأوائل ومن سار على نهجهم بأنها تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى الإسلام "ومن العجب أن ينكر هذا المستشرق اليهودي على الإسلام السنى وجود فكرة الزهد فيه ، وأنه كان عليه أن يتصيدها من الهنود .....ولكن "جولد تسهير " أعماه التعصب المقيت على الإسلام فرأى أن كل ما فيه من حياة روحية مأخوذ من ثقافات أو ديانات أخرى غيره (١).

أما قوله إن أثر البوذية ظاهر في بعض أشعار" أبو العتاهية " وتشبيهه له ببوذا فهذا الكلام مجانب للصواب ، لأن "أبا العتاهية" لم يكن مفكرا تنبثق فيه روح الإسلام ، ولم يكن زهده معبرا عن الزهد الإسلامي ، لأنه كان شاعرا غنوصيًا.

أما عن تشبيهه "إبراهيم بن أدهم " ببوذا فذلك "من أخطاء المستشرقين وقد أخذوه عن متأخري مؤرخي التصوف من الذين حملوا حياة "إبراهيم بن أدهم" وأقواله مالا تحتمل يقول دا النشار : "كان إبراهيم ابن أدهم رجلا غنيا فاعتبره المتأخرون أميرا ثم ملكا ، ثم تنازل عن ملكه وعرشه حين دعاه صوت داخلي ، فهو إذاً بوذا ، ولا نعرف على تاريخ الإسلام الحقيقي أن ملكا أو أميراً أو حاكماً تولى إمارة خراسان من أسرة إبراهيم بن أدهم ، فإبراهيم بن أدهم كان ثريا من أثرياء المسلمين في خراسان ثم زهد فى غناه وقصره حين استمع صيحات داخلية تدعوه إلى الله.

وقد ذكر مؤرخو التصوف الأقدمون فى سبب تصوف إبراهيم بن أدهم قوله : " كان أبى من ملوك خراسان وحُبِّب إلينا الصيد ، فخرجت راكباً فرسي وكلبي معي ، فبينما إنا كذلك فثار أرنب أو ثعلب فحركت فرسي ، فسمعت نداءاً من ورائي : ليس لذا خُلقت ، ولا بذا أُمرت فوقفت انظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحداً فقلت : لعن الله إبليس، ثم حركت فرسي فأسمع نداءاً من قربوس سرجي يا إبراهيم يا إبراهيم ما لذا خُلقت ولا بهذا امُرت فوقفت وقلت أُنبهت أُنبهت جاءني نذير من رب العالمين ،والله لا عصيت الله بعد يومى هذا ما عصمني ربى ، فرجعت إلى أهلى فخليت عن فرسي ثم جئت

---

(١)أنظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : ج٣ ص ٥٣.

إلى راع لأبى فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابي إليه حتى وصلت إلى العراق أرض ترفعني وأرض تضعني ". [١] فترك الدنيا وتخلى عن قصره وذهب إلى الخلوات زاهدا، ولكن إذا ما دعي داع إلى الجهاد لبى وأسرع للمرابطة ، فشتان ما بينه وبين الحكيم الهندي العاري الذى تخلى عن كل مطمع وخرج هائما لا يستر جسده إلا بقطعه من قماش تخفى عورته ، ولا شأن له بالدنيا ومن فيها , وقد حاول المستشرقون ان يقاربوا بين أقوال وأفعال إبراهيم بن أدهم التعبدية وأقوال وأفعال بوذا وكأن النصوص الدينية الإسلامية خالية من الكلام عن الحياة الآخرة الخالية من اللغو والتأثيم التي ينعم فيها المؤمن بالنعيم المقيم. [٢]

١- ومن شبهات المصدر الفارسي أيضا قول المستشرق الإنجليزي "براون" بأن التصوف كان من الأسلحة التي حارب بها الفرس العرب للقضاء عليهم وإنه كانت هناك جيوب خفيه حافظت على فارستيها وضغنت على الإسلام , كما إننا نجد في خراسان وفى فارس عموما فكرة السياحة لدى الزهاد أكثر منها في أي بلد آخر من بلاد الإسلام . [٣]

وفى الرد على تلك الشبهة يقول الدكتور النشار: -

إذا كانت الحياة الروحية في مدن خراسان قد تأثرت بمن حولها من المدن الإسلامية والسبب في هذا أنها لم تعاصر الخلفاء الراشدين ولم يرحل إليها أحد من كبار الصحابة ينشئ فيها تقاليد معينه، ولكن حين تمكن الاسلام من نفوس الفرس عامه والخرسانيين خاصة ظهر الموالي الذين انشأوا التفكير العقلي الإسلامي في هذه المنطقة كالمعتزلة والباقلاني والغزالي والرازي وهم من كبار رجال السنة وابى حنيفة والبخاري.

أما علماء الروح فكان الحسن البصري فارسيا ، وإذا كان الزهد الإسلامي البسيط الذى اتصف به كبار الصحابة اقتداءا بالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينتشر في بلاد خراسان فالسبب في ذلك أن الإسلام لم يستقر في خراسان إلا في أواخر القرن الأول .

---

(١) أنظر: حلية الأولياء ،ج ٨ ص ٣٦٨

(٢) أنظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام :ج٣ ص ٥٧، ٥٨.

(٣) أنظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج٣ ص ٣٨٣، ٣٨٤

ومع هذا نستطيع أن نجد في حياة بعض المحدثين من أهل خراسان آثار وبقيه من هذا الزهد الإسلامي البسيط "كإسحاق بن راهويه "و "يحيى بن يحيى". [١]

أما قوله إن فكرة السياحة الهندية كانت منتشرة لدى الزهاد في فارس وخراسان أكثر منها في أي بلد اخر مما يدل على تأثرهم بالسياح الهنود فهؤلاء السائحين لم يكونوا مقلدين للهنود ، لأن مصدر السياحة دعوة قرآنيه فقد ذكر القران الكريم التائبين والعابدين والخاشعين والسائحين والركع السجود وذلك في قوله تعالى « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » [٢] .

ثم إن أول السائحين في الإسلام لم يكونوا زهاداً بل محدثين يسيحون في الأرض لجمع روايات احاديث النبي صل الله عليه وسلم حفاظا على سنته ، وقد فعل ذلك "سفيان الثوري" أولا ثم "البخاري" صاحب الصحيح على نطاق واسع. [٣]وإذا كان هناك توارد بين أحوال ومقامات الصوفية وبين هذه المصادر الأجنبية ، فالتأثير يكون بالأقرب أولا، خاصة وأن المصادر الإسلامية قد ورد فيها كل المقامات والأحوال التى جاء بها الصوفية.

المصدر المسيحي

ذهب كثير من المستشرقين إلى القول بأن التصوف الإسلامي قد تأثر بالدين المسيحي، واستدلوا على ذلك بعقد بعض المقارنات بين بعض المعاني أو الأصول أو الصفات التي كانت مشتهرة عند كبار الصوفية المسلمين وما يماثلها عند رهبان الديانة المسيحية ، أو بين بعض نصوص الإنجيل التي تحمل هذه المعانى أو الصفات وما يماثلها من شواهد من الكتاب أو السنة ومن أمثلة ذلك :-

---

(١) أنظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج٣ ص ٣٨٠.

(٢) سورة الأحزاب :الآية ٣٥ .

(٣) أنظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج٣ ص ٣٨٤.

تشابه حياة الزهد عند المسلمين الأوائل بحياة رهبان النصارى .

ومن المستشرقين الذين قالوا بذلك " جولد تسهير " و " مرجليوت "، و " رينولد نيكلسون "، و " مارجريت سميث ".

وفى بيان ذلك يقول " جولد تسهير " :- إن انتشار الإسلام في الشام والعراق ومصر ومخالطة المسلمين لسكان هذه البلاد من المسيحيين أفسح للقوى المتعطشة للزهد هذا المجال الروحي فالتجارب التي تيسر لتلك النفوس اكتسابها بمخالطتهم المسيحين أصبحت دون ريب مدرسة للزهد في الإسلام ، ومنذ ذلك الوقت ظهرت هذه الميول النُسكية في وضوح وجلاء وبسطت نفوذها على آفاق اخذت تتسع شيئا فشيئاً (١)

وقد ترددت نفس الدعوى عند المستشرق الإنجليزي" رينولد نيكلسون " فالمسيحية عنده غرست بذور الزهد في بلاد العرب قبل البعثة المحمدية وظل أثرها يعمل عمله في تطور الزهد الإسلامي، كما أثّرت كذلك في حياة الرسول ﷺ وصحابته الأوائل ، فقد كانوا يقومون الليل كله أو بعضه تهجداً وعبادة محاكاةً للمسيحية ، وأن كلمه " زهد " قد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة في قصة يوسف (عليه السلام) في قوله تعالى :

(٢) □□□□□□□□□

وليس لها أي معنى صوفي وإنما هي مستعملة في مقام اللوم والتأنيب ، وأن الزهد ليس من خصائص الإسلام ولانبى الإسلام . (٣) وكذلك ذهبت " مارجريت سميث "٣ إلى القول بأن :بعض ترتيلات القديس "افراييم " أثرت هي الأخرى في المسلمين وأعطت مثالا لذلك الترتيل الذى كتبه هذا القديس : أيتها الدنيا ..... وأسفاه ، كم أنت محبوبة ، مفاتنك كثيرة ولكنها ليست باقيه ، إنك لست إلا حلماً ولا وجود لك في الحقيقة ، لأجل هذا إنى لأهجرنك ، الويل لمن يحبك ... إن

---

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام ،تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي "جولد تسهير " ص ١٤٨ ترجمه د/ محمد يوسف موسى وآخرون ط دار الكتاب العربي ط ٢

المرجع السابق ص ١٥٢

(٢) سورة يوسف :الآية ٢٠

(٣) أنظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه: ص ٤٤

قوة الله ورحمته إنما هي لهؤلاء الذين يرفصون هذه الدنيا ويمضون إلى الفناء ويتأملون دائما فيما هو باق ، لأجل هذا إني لأهجرنك، الويل لمن يجبك ، أيتها الدنيا إنه سيقع في شراكك وفى الشباك التي تنصبينها له أنه سيفقد نفسه ولن يتملكك اننى لأهجرنك ..... (١)

والرد على هذه الشبهة يمكن إجماله فيما يأتي :-

أولا:- لا أحد ينكر أو يشك في أن القرآن الكريم وهو المصدر الأول للتشريع ، ففيه الكثير من الآيات التي تُرغُب في الزهد ، وكذلك سنة النبي ﷺ وحياة الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم وهناك الكثير من الأدلة على ذلك ، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة ترغب في الزهد في متع الحياة ومنها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(٢)

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(٣)

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٤)

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾(٥)

---

(٣) مستشرقة بريطانيه ولدت سنة ١٨٨٤م أخذت في دراسة التصوف علي ميذهب بيكلسون ،زاتدور الكتب ف القاهرة و القدس و دمشق و استنبول من أعمالها كتاب عن المحاسبي نشر ف لندن سنة ١٩٣٥م أنظر المستشرقون :نجيب العفيفي ص٣٩ ط دار المعارف القاهرة

(٢) سورة طه الآية ١٣١

(٣) سورة الحديد الآية ٢٠

(٤) سورة التوبة الآية ٣٤

(٥) سورة الرعد الآية ٢٦

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1] وإذا كانت هذه نماذج لبعض الآيات التي وردت في الحث على الزهد في متع الدنيا ففي السنه النبوية أيضا الكثير من الأحاديث التي تدل على أن الزهد كان علامة بارزة في حياه النبي ﷺ ولم يقتبسه من مسيحية ولا غيرها والشواهد على ذلك كثيرة في اقواله ﷺ وأفعاله ومن ذلك

عن عائشة رضى الله عنها قالت : " ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خُبَز بر حتى مضي لسبيلة "[2]

وإذا كان الخبز الذى يتناوله كل الناس قد زهد فيه أكمل الخلق وأعلاهم عند الله تعالى أفلا يكون ذلك دليلاً عملياً على زهده ﷺ وأن الصوفية الأوائل قد اقتدوا بالنبي في هذا النوع من الزهد، بل دلت شواهد كثيرة من حياة النبي ﷺ أنه ما كان يوقد فى بيوته نار لطهي الطعام الشهور العديدة وهو زعيم الأمة وصاحب الدعاء المستجاب فعن عروة عن عائشة أنها كانت تقول " والله يا ابن اختى إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهله في شهرين وما أوقد في أبيات رسول ﷺ نار قال : قلت يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء ،

إلا أنه قد كان لرسول ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح فكانوا يرسلون إلى رسول ﷺ من البانها فيسقينا .[3]

فإذا أمسك الصوفية أنفسهم عن لذات المطعم والمشرب مكتفين بالقليل منه فهم في هذا المسلك متأسين بالنبي ﷺ دون سواه – أما الزهد في الملبس فمن صوره ما رواه أبو بردة عن عائشة قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فأخرجت إلينا كساءاً ملبداً من التي تسمونها الملبدة إزاراً عظيماً مما يصنع باليمن وأقسمت بالله لقد قبض رسول ﷺ في هذين الثوبين .[1]

وبناءاً على ما تقدم نقول إن التشابه بين بعض أخلاقيات أو زهد الرهبان وبين الحياه الروحية أو الزهد عند المسلمين الأوائل لا يرجع إلى التقليد أو التأثير، ولكن يرجع إلى وحدة المصدر

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٦.

(٢) صحيح مسلم ٢٩٧٠.

(٣)صحيح البخاري ، كتاب الهبه وفضلهاح٢٥٦٧

فالأديان السماوية مصدرها واحد، فإذا جاء النبي محمد ﷺ بأوامر أخلاقية معينة لا يجوز لأحد أن يقول أنه تأثر في ذلك بالمسيحية أو اليهودية ، وإنما ينبغي أن يُؤمن بوحدة المصدر الذي صدرت عنه هذه الأوامر الأخلاقية ..... ومعلوم أن رسل الله بعثوا معلمين للبشرية وجاءوا بمنهج أخلاقي كانوا هم أول الملتزمين به سلوكاً واعتقاداً ، فالزهد كان علامة بارزة في حياة الأنبياء جميعاً، فقضية تفضيل الأخرة على الأولى مبدأ عام نزل به الوحى على الرسل جميعاً ، فليس الزهد في الدنيا خاصاً بدين معين أو رسول معين وإنما هم أخوة علات دينهم واحدوا وأمهاتهم شتى . (٢)

وهناك مسألة اخرى في غاية الأهمية توضح لنا أن الزهاد المسلمين لم يكونوا مقلدين للرهبان المسيحين في هذا المسلك ، فإذا كان الأصل في معنى الزهد هو الإعراض عن الشيء لاحتقاره أو عدم تعلق القلب به وارتفاع الهمة عنه ، لكنه لم يقتصر معناه عند الزهاد المسلمين عند هذا الحد ، فتعريف الزهد عند شيوخ السلف كان يدور حول معانى الثقة بما في يد الله تعالى ، والصبر على المكاره ، وإحلال الخشية من الله وحده في القلب مع إسقاط منزلة المخلوقين منه ، ولهذا كان تعريف الزهد عند شيوخ السلف يدور حول هذه المعاني " فالدارقطنى أوضح أنه لا يستطيع أن يستدل على الزاهد ، لأن الزهد في القلب ".

وعند الفضيل ابن عياض الزهد هو الرضا عن الله ، ويقول سفيان بن عينية : الزاهد في لدنيا من إذا أُنعم عليه شكر وإذا ابتُلى صبر ، ويرى سفيان الثوري أن الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء ..... وهؤلاء جميعاً مع تنوع عباراتهم – إلا أنها تلتقى في إناء المعاني الروحية على تعريفهم للزهد ، قلم يقصدوا به التقشف في المأكل والملبس حيث فهم المستشرقون خطأ ، ومن ثم افترضوا نظرية الزهد الساذج البسيط فلم يكن الزهد عند الزهاد الأوائل في الإنقطاع عن الحياة الدنيوية فقط كما يفعل الرهبان حيث يقطعوا صلتهم بالحياة الدنيوية . (٣)

---

(١) الترغيب والترهيب ج ص٧٨ ح٣١٥١.

(٢) من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة ص٥٢: ٥٣ د/محمد السيد الجليند ط مكتبة الزهراء القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(٣) ابن تيمية والتصوف: ص ٦٧، ٦٨ د/ مصطفى حلمى ط دار الدعوة الاسكندرية .

وإذا كانت الدنيا في التفسير الرهباني تصبح موضع الشرور والآثام فإنها لم تكن كذلك عند المسلمين ، فقد سمع على بن ابى طالب أحدهم يذم الدنيا أمامه فغضب لأنها مهبط وحى الله ، ومصلى الملائكة ، ومسجد أنبياءه ومتجر أوليائه ، والزهد عند المسلمين كذلك يتضمن التفاعل مع الناس والجماعة فقد رأينا زهد المجاهدين وزهد الفقهاء وزهد الحكام أمثال عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الزاهد ، والحسن البصرى وسعيد بن المسيب والأوزعي وغيرهم من هؤلاء الذين ملأوا العالم الإسلامي فقهاً وتفسيراً وحديثاً ومواعظ ،ومن هذا يتبين خطأ النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة حينما حاولت أن تثبت تقليد المسلمين الأوائل للرهبان في الزهد .

٢- أما استدلال " نيكلسون" على دعواه بقوله : إن الزهد لم يذكر في القرآن إلا مرة واحده ، فعدم تكرارها ليس دليلا على عدم اهتمام القرآن بمعناها ، فالوقوف عند مجرد ذكر اللفظ لا يدل على نفى مفهومه ، فالقارئ لآيات القرآن الكريم يجد الكثير منها يتحدث عن إهتمام القرآن بالآخرة وما يؤدى إلى نيل السعادة فيها ، وتحذيره من الإغترار بمتع الدنيا ليعلم مدى إهتمام القرآن الكريم بالزهد مبدءاً وسلوكاً ومنهاجاً لحياه المسلم ومحوراً رئيساً لتعلق قلب المؤمن بالله عز وجل ، يقول تعالي:يَكُونُ ٱلنَّاسُ □ الحديد: ٢٠"

٣- والذى يقرأ كلام " نيكلسون" يدُرك أنه لم يكن لديه تصور كامل عن طبيعة

الزهد في الإسلام ، فهو لم يبين تصوره للزهد الإسلامي من الكتاب والسنة ولا من سيرة سلف الأمة ، ولكنه أخذها من كتب الصوفية المتأخرة ومعظمهم من متصوفة القرن الثالث والرابع الذين أختلط في سلوك بعضهم الحسن بالقبيح ، والمحمود شرعاً بالمذموم .وقد أشار كبار الصوفية إلى ما عند هؤلاء من تجاوز لما في الكتاب والسنة وحذروا منه وقالوا أنه دخيل على طريقتهم ، وقد ساعد على هذا الفهم الخاطئ أن معظم من كتبوا عن التصوف من المستشرقين قد اعتمدوا في مصادرهم على ما كتبه الصوفية فقط ، والذين كتبوا من الصوفية عن الزهد جعلوا عمدتهم في ذلك ما يرويه أحدهم عن شيخه اصلاً لمذهبه ، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين ، وإذا ذكر شيئاً عنهم فإنما يذكره ليستدل على صحة مواقف شيخه .فعل ذلك القشيري في "الرسالة " والكلاباذى في " التعرف " والسلمى في " الطبقات " والسراج في " اللمع " ومن أشهر من تنبه إلى ذلك " أبو

الفرج بن الجوزي " في كتابه " صفوة الصفوة " فكان يذكر الزهاد الأوائل من الصحابة والتابعين ثم منْ يليهم مشيرا إلى منهجهم وسلوكهم ومن قبله فعل ذلك الإمام " أحمد بن حنبل " في كتابه " الزهد " وعبدالله بن المبارك فهؤلاء جميعاً جعلوا أصولهم في النقل والرواية فعل النبي ﷺ أو قوله ثم فعل الصحابة أ وقولهم ثم فعل التابعين ثم من أقتدى بهم ، أما المتصوفة فجعلوا المروى عن المتأخرين منهم هو الأصل وقد يكون المروى عندهم لا سند له من كتاب أو سنة ولا من فعل أحد من الصحابة.

ولما قرأ المستشرقون كتب الصوفية في ذلك وهى بهذه الكيفية لم يراعوا هذه المسألة المهمة ومن ثم لم يفرقوا بين ما هو إسلامي صحيح منها وما هو أجنبي دخيل . (١)

تأثر النبي ﷺ بزهد رهبان المسيحية قبل بعثته

يقول " نيكلسون " إن عرب الجاهلية كانوا على حظ قليل من التفكير الديني ، وإن المسيحية غير التقليدية هي التي بذرت فيهم بذور الزهد قبل البعثة المحمدية وهؤلاء العرب كانوا يقدرون رهبان المسيحية ويتخذونهم قدوة لهم ، وهؤلاء الرهبان هم " الحنفاء " وكان لأثنين منهم الأثر في النبي قبل البعثة وهما " بجيرا الراهب وورقه ابن نوفل"(٢)

والرد على هذه الشبهة يمكن إجماله فيما يأتي :

١- إدعائه أن العرب في الجاهلية كانوا على حظ قليل من التفكير الديني هذا أمر غير صحيح فقد ورد عنهم أنهم كانوا يوحدون الله تعالى في الإعتقاد ولكنهم أشركوا معه آلهة أخرى متعددة في العبادة ليقربوهم إلى الله زلفى وليكونوا شفعاء لهم عند الله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٣)

(١) أنظر : من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة ص ٥٥ ، ٥٦

(٢) أنظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه :ر ١٠ نيكلسون ص ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة الزمر من الآية ٣

فقد ورد في تفسير هذه الآية أن هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء يقولون لهم " ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى على سبيل القربة والمنزلة وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا ، وكانت قريش تقوله للأوثان ومن قبلهم يقولون ذلك للملائكة ولعيسى بن مريم وللعزير. (١)

قال" قتادة " كانوا إذا قيل لهم مَنْ ربكم وخالقكم ؟ ومَنْ خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا : الله فيقال لهم : ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده ، .....والزلفى القربة أي ليقربونا إليه تقريباً . (٢)

٢- إن حنفاء العرب ليسوا رهبان المسيحية ، لأن هؤلاء الحنفاء كانوا يعبدون الله تعالى على دين إبراهيم (عليه السلام) ولذلك نسبوا إليه لقوله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣)

أما رهبان المسيحية فهم أتباع بولس "شاؤل " اليهودي الذى ادعى المسيحية وكاد للمسيح وللحواريين وظل خصماً لهم حتى انتهت رسالة عيسى بن مريم رسول الله ، ثم بنى بولس المسيحية على أنقاض النصرانية فجاءت المسيحية بالتثليث بدل التوحيد ، والتجسيم لله تعالى بدل التنزيه ، وجعل عيسى بن مريم إلهاً أو جزء من الإله بعد أن كان عبداً لله إلى غير ذلك من العقائد التي استحدثت في المسيحية بعد عيسى "عليه السلام "، إذاً الرهبان غير الحنفاء، ومن ثَم لم يتعلم الحنفاء العرب من الرهبان المسيحين ولا دانوا بفكرهم أو كانوا صورة منهم حتى وأن حدث نوع من الإحتكاك بين الحنفاء والرهبان. (٤)

إن النبي ﷺ لم يتعلم من هؤلاء الرهبان، لأن النبي ﷺ كان أمياً وظل على أُميته ولو كان قد تعلم من هؤلاء الرهبان لتعلم منهم مبادئ القراءة والكتابة أو لا ، ومن ناحيه أخرى النبي ﷺ لم يذهب مع عمه للتجارة في الشام إلا وهو طفل وقد اعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته ، ثم سافر إليها في تجارة السيدة خديجة وهو شاب مرة واحدة ولم يتجاوز سوق مدينة بصرى في المرتين ، ولم يكن

---

(١) أنظر : جامع البيان عن تأويل آى القرآن لابن جرير الطبري ج ٢٣ ص ١٩١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٨ ص ٢٤٧

(٣) سورة أل عمران: الآية ٦٧

(٤) الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية ج ١ المقدمات ص ٣٩٥ .

يعرف عن تجارة هذه القوافل التي تذهب من مكة إلى الشام أنهم كانون يعنون بلقاء أحبار النصارى و مباحثتهم في دينهم و كتبهم . [١]

وبالتالي فزعم المستشرقين أن النبي ﷺ قد تأثر بالزهد المسيحي غير مقبول والحق أن ملامح الصفاء القلبي والنقاء الروحي والسمو الوجداني لم تكن تفارق رسول الله ﷺ قبل بعثته أبداً فقد حُببَ إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع إلى أهله ويتزَود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزَود لمثلها . [٢]

وكان رسول الله ﷺ يذهب إلى شعاب مكة وبطون أوديتها خالياً بنفسه بجانب تحنثه في غار حراء متجهاً إلى الله تعالى بعقله وفكره وضميره وظل على ذلك حتى جاءه الوحى "[٣] **فالقول إذاً بتأثره بالمسيحية أو بالرهبان المسيحين يدخل في نطاق التكهنات المغرضة التي ابتدعها بعض علماء المشرقيات لأن الحقائق العلمية تدحضها وتقوض دعائمها"**

أضف إلى ذلك أن مثل هذه التكهنات قال بها من قبل أهل قريش "﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[٤]

واختاروا حداداً نصرانياً يعرف القراءة والكتابة فكان خليقاً في نظرهم أن يكون استاذاً للنبي ﷺ ونزل في حقهم قوله تعالى ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾
[٥]

يتبين لنا من ذلك أن قريشاً لم تعثر على سبب واحد تجد فيه صله بين ﷺ وبين هؤلاء الرهبان ، ولو كان ذلك ممكناً لقالوا به بدلاً من اختلاق قصة حدَّاد مكة التي تثير السخرية لسذاجتها واستحالتها ويعلق د/ عبدالله دراز على ذلك بقوله :- هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص على خصومته وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته وأحصاهم لحركاته وسكناته قد عجزوا أن يعقدوا صله

---

(١) أنظر : الوحى المحمدي ص ٨٣ ، ٨٤ ، ابن تيمية والتصوف ص ٨١

(٢) أنظر : نشأه الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٣ ص ٨٠

(٣) ابن تيمية والتصوف ص٨١.

(٤) سورة النحل الآية ١٠٣

(٥) سورة النحل الآية ١٠٣

علمية بينه وبين أهل العلم في عصره فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ .[١]

لبس الصوف

يقول "نيكلسون" كانت الثياب المصنوعة من خشن الصوف علامة على الزهد قبل الإسلام وفى هذا حاكى العرب رهبان المسيحين وقد شاع استعمال هذا النوع من الثياب بين زهاد المسلمين الأوائل ومنه اشتق اسم الصوفية الذى أستعمل قبل نهاية القرن الثاني الهجري[٢]

كما ذهبت " مارجريت سميث" إلى مثل ذلك في قولها " إن العباد الأولين كانوا يلبسون الملابس البيضاء تشبيهاً بالنصارى "[٣] وهذا رأى مجانب للصواب وذلك لما يأتي :-

١- إن لبس الصوف -كما يقول الطوسي- " كان دأب الأنبياء وشعار الأولياء والأصفياء والصديقين والمساكين المتنسكين "[٤].ولم يكن خاصاً بالرهبان النصارى .

٢- لا أحد ينكر أن العرب قبل الإسلام اشتهروا برعي الغنم والإبل وهى حيوانات تشتهر بإنتاج الصوف وهذه الأصواف كان يستعملها العرب في اللباس فما المانع أن يكون الرهبان الذين قلدوا العرب في هذا اللباس قبل مجيء الإسلام ؟ ويكون المعنى على ذلك أن الرهبان شاهدوا العرب وهم يتجولون في الصحارى والقفار بحثاً عن الكلأ والمرعى وهم بهذا اللباس فقلدوهم وهذا الكلام لا يوجد دليل على رده "[٥] بل يدعمه قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾[٦] فلبس الصوف إذا كان مشهوراً في البيئة العربية قبل مجيء الإسلام .

---

(١) ابن تيميه والتصوف ص ٨٢

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٤٨ ، ٤٩

(٥) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٣ ص ١٤٦

(٤) اللمع للطوسي ص ٤١

(٥)الرأي الصواب في تصوف أهل السنه الأطهار ص ١٣١

(٦) سورة النحل آية ٨٠.

٣- ورد عن النبي ﷺ أنه كان يلبس الصوف فلماذا لا يكون لبس هؤلاء الزهاد المسلمين للصوف اقتداءاً بالنبي ﷺ ولا يكون تقليداً للرهبان ولا لغيرهم .

٤- ومن الأمور التي تنفى هذه الشبهة أيضا أن لبس الصوف لم يرد ذكره في الشام ولا في مصر فانتشار لبسه لم يتحقق إلا في الكوفة معاصراً لحياة الثراء والرفاهية ، وما دامت الشام ومصر لم يشتهر زهادهما بلبس الصوف وهم في قلب المسيحية الشرقية في ذلك الوقت فلا ندرى كيف يكون الصوف مرتبطا ارتباطا مباشراً بالرهبنة ؟

٥- وأكثر من هذا لقد كان لزهاد الشام أسم مستقل ينم عن جوهر الزهد عندهم وهو أنهم كانوا يسمون بالجوعية[١] أما لبس هؤلاء الزهاد للثياب البيض فهو الأخر لم يكن تقليدا للرهبان لآنه من الثابت أن النبي ﷺ كان يحب الثياب البيض.

(١) الصلة بين التصوف والتشيع د/ كامل مصطفى الشيبي ج١ ص٢٨٤، ٢٨٥، ط دار الأندلس بيروت، ط٣، ١٩٨٢.

تأثر الزهاد الأوائل بقصص الزهد الإنجيلية ومواعظ الرهبان

ومن الشبهات التي أعتمد عليها "نيكلسون" في أسناد التصوف الإسلامي إلى المسيحية : تأثر الزهاد الأوائل بالمواعظ التي كان يلقيها الرهبان في صوامعهم ، ومما يدل على هذا التأثر وجود نصوص كثيرة من الإنجيل في كتابات هؤلاء الصوفية الأوائل ، وكذلك القصص الإنجيلية التي كان يقصها الرهبان على طريقتهم الخاصة كان المسلمون يتلهفون على قراءتها مثل المجموعة المعروفة باسم الإسرائيليات التي يقال ان وهب بن منبه قد جمعها ، وكتاب قصص الأنبياء الذى كتبه الثعلبي . (١)

وللرد على هذه الشبهة يقول د/ النشار :-

أما ان الإنجيل قد عرف طريقه إلى المسلمين في هذا الوقت وكذلك قصص الأنبياء المأخوذة عن العهدين القديم والجديد فهذا أمر لا يمكن إنكاره ، بل أخذ المسلمون بشرع من قبلهم إذا لم يكن في شرعهم أي في شرع المسلمين ما ينقضه ،ولكننا رأينا كيف كان كبار العباد ينكرون على مريديهم وأتباعهم التشبه بالنصارى والأخذ عنهم ، أما تلك الصور الشعرية الفاتنة عن اجتماع الزهاد والعباد على راهب واستماعهم إليه يعظهم أو اجتماع راهب أو رهبان على زاهد أو عابد يستمعون إليه ويدلهم على طريق الخلاص ويبين لهم سمو الدين الإسلامي كل هذه الصور الشعرية الفاتنة إنما هي إلى خيال المؤرخين أوصل وقد فعلوا هذا في سيرة الرسول ﷺ فقالوا : استمع إلى يجيرا ، واستمع يجيرا أليه ، وأستمع إلى ورقة بن نوفل واستمع ابن نوفل إليه وشهد الجميع ان ناموسة أعظم من ناموس موسى وعيسى . (٢)

التوكل

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٤٧.

(٢)انظر : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٣ ص ١٤٤

ذهب "جولد تسهير" إلى القول بأن الزهاد الأوائل نسبوا للرسول ﷺ أحاديث تكاد تكون فقرات من العهد الجديد ويعطى مثالاً لها بحديث " التوكل " (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً ولذالت بدعائكم الجبال) [١] .

ويرى أن هذه الفقرات موجوده بعينها في انجيل متى الإصحاح السادس الأعداد ٢٥ :٣٤ وإنجيل لوقا أصحاح ١٢ أعداد ٢٢: ٣٠ وهى التي تتحدث عن طير السماء التي لا تبذر ولا تحصد ، ولا تكدس الحبوب في الهواء ولكن يغنيها خالقها . [٢]

أما مقارنة " جولد تسهير " بين التوكل في الإسلام وبعض نصوص الإنجيل في هذا الشأن فهي كما يقول د/ النشار " مقارنة مبتسرة ، بل تدل على حمق " جولد تسهير " ومحاولته بكل الوسائل أن يسلب عن الإسلام كل جده ....ثم أن رزق الله للطير معنى عام ممكن أن يستكشفه نبي يتكلم مع الناس عمومهم وخصوصهم وحتى لو افترضنا التوافق التام بين حديث النبي محمد ﷺ والفقرات الواردة في أنجيل متى ولوقا فلا ضرر ولا ضرار إذا الإسلام يعلن أنه أتى قرآنا وحديثاً مصدقاً للتوراة والإنجيل ، ولم يدَع الإسلام أبداً أن التحريف وصل إلى أخلاقيات الإنجيل. [٣]

وأيضا ينبغي ألا ننسى أن خُلق التوكل هو خلق عام تحلى به الرسل جميعاً منذ نوح الى محمد صلوات الله عليهم جميعاً يقول الله تعالي حكاية عن نوح عليه السلام "يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ"(٤)

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير﴾(٥)

وقال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٦)

---

(١)صحيح اخرجه الترمذى"٢٣٤٥" وابن ماجه "٤١٦٤" والبغوى " ٤١٠٨٧"

(٢) انظر : العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١٥٢ ، ١٥٣

(٣)نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٣ ص ١٤٣

(٤) سورة يونس الآية ٧١

(٥) سورة الممتحنة الآية ٤

(٦) سورة هود الآية ٨٨

وأمر الله سبحانه به رسوله ﷺ في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١)

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾(٢)

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(٣)

ظهور طائفة البكائين

ومن الشبهات التي أرجعت التصوف الإسلامي إلى تقليد الزهاد المسلمين لرهبان النصارى ظهور طائفة البكائين ، فقد رجِّح " نيكلسون " أن ظهور هذه الطائفة بين زهاد المسلمين يرجع إلى تقليدهم للرهبان وذلك في قوله " وقد ظهر بين الزهاد طائفة تعُرف بالبكائين ، وهو اسم ربما أخذوه عن رهبان المسيحية"(٤)

كما رأت " مارجريت سميث " أن عُبَّاد المسلمين اتخذوا طريق البكاء عن رهبان المسيحية وزهادها الأوائل ، وان الزاهد كان يدُعى في الكنيسة السوريانية بالبكَّاء ، وأن البكاء المشهور في الكنيسة السوريانية قد أثَّر في البكائين المسلمين وأن " الحسن البصرى " حين أمتنع عن الضحك إنما تأثر بالقديس " باسيل " وقد نهى أيضاً عن الضحك بل جعل النهي عنه قاعدة من قواعد الزهد . (٥)

وهذا غير صحيح للأسباب الآتية :-

أولا:- لأنه لم يُعْرف أسم البكائين بين الزهاد أو العباد الأوائل أبداً بل عرف اسماء اخرى مثل العباد أو الخائفين .

---

(١) سورة هود الآية ١٢٣

(٢) سورة النمل الآية ٧٩

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٨

(٤) فى التصوف الاسلامى وتاريخه للأستاذ رينولد أ نيكلسون ص ٤٧ ترجمه د/ أبو العلا عفيفي ، ط مطبعة الكرنك القاهرة ١٣٦٦هجرياً ، ١٩٤٢م .

(٥) نشأة الفكر الفلسفي فى الإسلام ج ٣ ص ١٤٧، ١٤٨

ثانيا :- إن البكاء نشأ من المجتمع الإسلامي ومن حياة المسلمين الإجتماعية والسياسية وأسم البكائين عرف في أول الأمر في المدينة بعد استشهاد الحسين بن على رضى الله عنه وأول من أشتهر به على بن الحسين زين العابدين ، وإنما استنه بعد موت أبيه وأخوته وأهله أمام عينيه في كربلاء ، فلم يكن إذا ناشئاً عن التأثر بالمسيحية أو الرهبنة .

ثالثا :- إذا كان البكاء قد عُرف لدى العباد في البصرة والكوفة إلا أنه كان مرتبطاً فيهما وفى غيرهما من البلاد الإسلامية بفكرة الخوف الناشئة من التأثر بالآيات القرآنية التي تتحدث عن ذكر النار وعذابها في الآخرة . [١]

(١) أنظر: نشأة الفكر الفلسفي فى الإسلام ج ٣ ص ١٤٤

المبحث الثالث

المصادر الداخلية للتصوف

ويشتمل على :

١ –المصدر الاول : القرآن الكريم

٢ – المصدر الثاني : السنة النبوية المطهرة

٣ – حياة الصحابة والتابعين

المصادر الداخلية للتصوف

وبعد ذكر الشبهات التى ذكرها المستشرقون حول مصادر التصوف نذكر الآن بعض من الشواهد أو أوالأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التى سار علي ضوئها هؤلاء الصوفية فلا شك أن النصوص الدينية بما فيها من ترغيب وترهيب ودعوة إلى الطاعة والعبادة وتحقير لشئون الدنيا وتذكير بالآخرة وكذلك حياة كبار الصحابة كانت الباعث الأول على التنسك والزهد ، فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وحياة الصحابة ومن سار على نهجهم من التابعين نجد فيها معينًا لا ينضب وغذاءً لا ينفد من الشواهد والأدلة التي يمكن أن تكون شاهدًا على أصالة التصوف الإسلامي في بواكيره الأولى وسنوضح ذلك ببعض الأمثلة من هذه المصادر فيما يأتي :

أولًا : القرآن الكريم .

وجد العُباد والزهاد الأوائل في القرآن الكريم الكثير من الشواهد والأدلة التي اهتدوا بها في طريقهم إلى الله سبحانه وتعالى ففي القرآن الكريم – على سبيل المثال – آيات تتعلق ببعض أحوال ومقامات الصوفية كالتوبة والرجوع إلى الله تعالى ولا بد للسالك من التوبة والإنابة إلى الله تعالى ، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى : « وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ» [1] ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » [2] ، «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » [3] .

– وفيه أيضًا آيات تتحدث عن مقام مجاهدة النفس ومداومة الطاعة ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » [4] .

([1]) سورة الزمر: من الآية ٥٤ .

([2]) سورة النور : من الآية ٣١ .

([3]) سورة البقرة : من الآية ٢٢٢ .

([4]) سورة التوبة :الآية ..... .

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»[١].

ومن أمثلة عدم تعلق القلب بمتع الدنيا والزهد فيها قوله تعالى : « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ » [٢] ، وقوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » [٣] . والزهد من لوازم الإقبال على السير وفي مقام المحاسبة ومقام المراقبة يقول الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ » [٤] . « قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ » [٥] . « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » [٦] .

" والمراد بالمحاسبة : أن يقف الإنسان مع نفسه يحاسبها ليتدارك أمره فيما فرط أو قصر فيه .

والمراقبة : أن يحافظ على ظاهره وباطنه من أن يصدر عنه ما يحبط عمله .

وفي مقام التقوى وهي الخوف من الله : الدافع إلى عدم التقصير في أمر الله أو اقتراف ما أسخط الله " [٧] . يقول سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».[٨] ، « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ».[٩]

---

(١) سورة الأحزاب :الآية ٣٥ .

(٢) سورة الحديد :الآية ٢٠ .

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤ .

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٣٥ .

(٥) سورة آل عمران :الآية ٢٩ .

(٦) سورة المؤمنون :الآية ٦٠ .

(٧) التصوف الإسلامي بين أنصاره وخصومه: صـ ٥٥ .

(٨) سورة الحشر :الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٩) سورة الطلاق :الآيتان ٢ ، ٣ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » . [١]

وفي القرآن الكريم آيات تتعلق بمقام الخوف من الله كما في قوله سبحانه : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » . [٢]

والمعروف عن الصوفية أنهم يأتون الفرائض ويزيدون عليها بالنوافل ،بل ويكثرون منها ومن الذكر والدعاء حتي يصلوا إلي مرتبة الإحسان فهم في ذلك يمتثلون لآيات القرآن الكريم التي ترغب في ذلك و منها قوله سبحانه وتعالى : « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » [٣]. « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ » [٤] . « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا » [٥] . «وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا » [٦] .

وإذا كان من مقامات التصوف التوكل والصبر والشكر والرضا ففي القرآن الكريم دعوة إلى التحلي بكل هذه الفضائل وأمثالها كما في قوله سبحانه وتعالى : « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » [٧] . « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » [٨] . « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » [٩] . « وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » [١٠] .

([١]) سورة لقمان :الآية ٣٣ .
([٢]) سورة الزمر :الآية ٥٣ .
([٣]) سورة الفرقان :الآية ٦٤ .
([٤]) سورة آل عمران :الآية ١٩١ .
([٥]) سورة طه الآية١٢٤ .
([٦]) سورة الإنسان الآية: ٢٦ .
([٧]) سورة التوبة : الآية ٥١ .
([٨]) سورة الزمر : الآية ١٠ .
([٩]) سورة البقرة :الآية ... .
([١٠]) سورة التوبة :الآية ١٠٠ .

وإذا كانت الغاية من السلوك هى الوصول إلى المعرفة وعلم اليقين ففي القرآن الكريم أيضًا آيات تتعلق بذلك المعنى ومنها قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » [١] . « فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » [٢] .

والسبيل إلى هذا العلم هو الذكر والاجتهاد في الطاعة والعبادة وهذا السلوك يتبعه غالبًا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها ... وهذا الكشف كثيرًا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم»[٣].

وبعد فهذه هي أشهر المعاني أو المقامات و الأخلاق التي اشتهر بها أهل الطريق إلى الله سبحانه وتعالى وقد وجدوا في القرآن الكريم الذي هو المصدر الأول للتشريع ما يدعوهم إلى التمسك بها بل والتقرب بهاإلى الله سبحانه وتعالى .

ثانيًا : السنة النبوية .

وللسنة النبوية مكانة كبيرة في الاقتداء عند الصوفية وحسبنا أن نرجع إلى كتاب اللمع للطوسي وهو يتكلم عن مقامات الصوفية ويستدل عليها بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك فعل الإمام الغزالي بل ذهب الطوسي إلى القول بأن أصل التصوف الإسلامي وما ورد فيه من علم الباطن يرجع إلى أربعة أحاديث [٤] : حديث جبريل عليه السلام حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال في الإحسان : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[٥].

وحديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي وقال : " يا غلام احفظ الله يحفظك ..."[٦].

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٨٢ .

(٢) سورة الكهف :الآية ٦٥ .

(٣) قضية التصوف . المدرسة الشاذلية: صـ ٤٣٣ .

(٤) انظر : اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي : للطوسي صـ ٩٦ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان والإسلام والإحسان ، ح١- ٨ .

(٦) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وحديث وابصة : " الإثم ما حاك في صدرك ، والبر ما اطمأنت إليه نفسك " . [1] .

وحديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " الحلال بين والحرام بين " . [2]

كما يرى الصوفية أيضًا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أصلًا عظيمًا للتصوف فقد ورد عنه أنه كان يعتكف في العشر الأواخر من شهر رمضان كل عام يشد فيها مئزره ويحيي ليله ويوقظ أهله ، والاعتكاف سنة محببة في الإسلام وهو ضرب من الخلوة ورجوع إلى النفس لمحاسبتها والانقطاع عن كل ما يشغل عن الله ، وهو شيء بعيد عن رهبانية النصارى التي ابتدعوها ولم يرعواها حق رعايتها كما ذكر القرآن عنهم « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » [3] ، وسواء أكانت الرهبانية بدعة ابتدعها النصارى أم هي مشروعة في دينهم ،وسواء أكان هذا أم ذاك صحيحًا فالإسلام لا يقر الرهبانية بل قد ورد النهي عنها في أحاديث كثيرة [4] .

وقد كانت عناية الصوفية الأوائل ومن سار على نهجهم بالسنة النبوية المطهرة تطبيقًا عمليًا لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (*) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (*) » [5] .

يقول أحد العارفين : قامت طريقتنا واستقر منهجنا على كتاب الله العزيز وسنة النبي الهادي الأمين التي علمتنا أن ولي الله يحبه الله [6] ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال في الحديث القدسي: " من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه

([1]) رواه أحمد والدارمي .

([2]) صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، ح١٠٧ / ١٥٩٩ .

([3]) سورة الحديد : من الآية ٢٧ .

([4]) التصوف بين أنصاره وخصومه: صـ ٦١ .

([5]) سورة الأنفال : الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

([6]) أنظر: التصوف طريقه وحقيقته: للشيخ محمود بن سالم الجمل صـ٧٣.

الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه " . [1]

وإذا كان أغلب الصوفية من سماتهم التواضع وعدم الإغترار بالنفس فهم قد أخذوا ذلك من سلوك النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف وينتعل المخصوف ، ويركب الحمار ، ويحلب الشاة ، ويخصف نعله ويرقع ثوبه، وكان لا يأنف أن يركب الحمار ويردف خلفه [2] **. ولو شاء لعاش عيشة الأغنياء ولكنه آثر الآخرة على الأولى ،وإذا كان خلق الصبر من أخلاق أو مقامات الصوفية فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم صابرًا على ما يصيبه سواء في نفسه أو أهله أو ما يعانيه في سبيل نشر رسالته فقد أوذي أشد الأذى في سبيل دعوته فصبر امتثالًا لأمر الله سبحانه وتعالى واتباعاً لسنة الأنبياء(عليهم السلام) من قبله « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ »** [3] **ومات أبناؤه كلهم في حياته ما عدا السيدة فاطمة رضي الله عنها فما زاد على قول الله تعالى : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»**[4]**.**

والصوفية في حبهم لله سبحانه وتعالى وإخلاصهم له قد تأسوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان هديهم في ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» [5] **.**

ومن دلائل زهده صلى الله عليه وسلم في ملبسه ومأكله ما روي عنه أنه صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز بر قط اختيارًا لا اضطرارًا ،لأنه لو سأل الله تعالى أن يجعل له الجبال ذهبًا لأعطاه ذلك ، فعن عائشة قال : " ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض " . [6]

---

(1) أ نظر: التصوف طريقه وحقيقته :للشيخ محمود بن سالم الجمل ص٧٣

(2) الإتحاف السنية بالأحاديث القدسية: جـ ١ صـ ١٤ ح (٤) ط مؤسسة الريان .

(3) سورة الأحقاف :الآية ٣٥ .

(4) سورة البقرة :الآية ١٥٦ .

(5) صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ،ح / ٦٧ .

(6) صحيح مسلم : كتاب الزهد والرقاق ح / ٢٠ / ٢٩٧٠ ، وانظر : اللمع للطوسي صـ ٨٦ .

وإذا كانت منزلة التوكل من أوسع المنازل وأجمعها كما يدل على ذلك قول سهل بن عبد الله التستري : " العلم كله باب من التعبد ، والتعبد كله باب من الورع ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل " . وقول ابن الجوزي عن التوكل : ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها ولا تزال معمورة بالنازلين فالشواهد على ثبوت هذا الخلق عند النبي(صلى الله عليه وسلم) كثيرة ، منها :

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون ».[١]

وعن أنس رضي الله عنه الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال – يعني إذا خرج من بيته – بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله . يقال له : هُديت ووُقيت وكُفيت وتنحى عنه الشيطان . فيقول الشيطان لشيطان آخر كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي » . [٢]

وإذا كان الذكر هو قوت قلوب أهل الطريقة وعماد ديارهم الذي يستدفعون به الآفات ويستكشفون الكربات وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته فقد وجد هؤلاء الذاكرين لله كثيرًا والذاكرات الأسوة الحسنة في النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي المسند مرفوعاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأذكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا : بلى ، قال : ذكر الله عز وجل » [٣] . وسأل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل ؟ فقال : « لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله » [٤] . كما ورد عنه

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ما عمل ، ح / ٦٧ / ٢٧١٧ .

(٢) سنن الترمذي: ح ٣٤٢٦ ، سنن أبي داوود: ح/ ٩٥ .

(٣) مسند أحمد: ٦ / ٤٤٧ ،سنن الترمذي ٣٣٧٤ ، ابن ماجة ٣٧٩٠ .

(٤) مسند أحمد: ٤ / ١٨٨ .

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » [١] .

والشواهد على مكانة الذكر وأهميته كثيرة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولم يقف الأمر عند هذه الأمثلة فقط بل كل المعاني السامية والأخلاق الكريمة التي تمسك بها أهل الطريقة واعتبروها أساس منهجهم أخذوها من سنة النبي صلى الله عليه وسلم وساروا على دربها في هذه الحياة الروحية الزاهدة العابدة بعيدًا عن

حياة الصحابة :

لقد سار صحابه النبي صلي الله عليه و سلم علي منهجي في العبادات و سائر القربات وكانوا وضاءة و نجوم ساطعة في التأسي ومنهم:

**** أبو بكر الصديق .***

كان الصاحب الأول زاهدًا أشد الزهد يعاف الدنيا ويخشى فتنتها ، ويحاول قدر ما أمكنه أن يجنب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أوزارها، فحرم على أهل بدر الإمارة وحاول ألا يستخدمهم حتى لا تشوب حياتهم شائبة من دنيا . [٢]

وإذا كان الزهد هو التقشف والعزوف عن المتع الدنيوية فإن أبا بكر يعد بهذا المقياس من أوائل الزهاد ، وقد استعمل كل ماله في سبيل نشر الإسلام وتحرير رقاب الأرقاء من المسلمين من أموال تجارته التي بلغت في وقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألف درهم ، فأخذ يعتق منها الكثير من العبيد الذين أسلموا حتى أصبحت خمسة آلاف درهم فقط حين هاجر إلى المدينة ، وله مواعظ لها صلة بسمات الزهاد الأوائل ومنها الحث على البكاء وقد اشتهر به هو نفسه فقد ورد عنه أنه كان يسمى بالأوَّاه .وإذا كان خُلُق المحاسبة من الأخلاق التي اشتهرت عند الصوفية فالصحابي الأول قد سبقهم إليها فروي عنه أنه شوهد مرة آخذا بلسانه ويقول : هذا أوردني

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن . ح / ٣٩ / ٢٧٠٠ .

(٢)انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د / علي سامي النشار . ج ٣ صـ ٨٦ ط دار المعارف .

الموارد [1] . وقد تكلم أيضًا عن الخوف من الله تعالى والرغبة في مثوبته شارحًا الآية التي تصف زكريا عله السلام وأهل بيته « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » [2] . فأثنى الله تعالى عليهم لهذا السبب ، ويضع ابن تيمية أبا بكر في عداد السالكين لطريقة الروح في الإسلام لتفرده بمقام الصديق وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقين ، [3] مصداقًا لقوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » [4] .

والصديق قد تحقق بمقام الخوف من الله تعالى ، وقد حُكِي عنه أنه تمنى ذات مرة أنه لم يخلق :وأنه كان يقول : ليتني لم أكن شيئًا ، كما كان يقول : ليتني كنت جريشًا يأكله الهوام ، وتبنة تأكلها الدواب ، أو عود أخضر يوحد رب الأرباب ولا يقع عليه الحساب .

كما ورد عنه أيضًا قوله : لو نادى منادٍ من السماء أنه لن يلج الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا ، ولو نادى منادٍ منا السماء أنه لن يدخل النار إلا رجل واحد لخفت أن أكون أنا هو . قال مطرف : هذا والله أعظم الخوف وأعظم الرجاء . [5]

هذا مع أنه كان من المبشرين بالجنة ، ولأبي بكر رضي الله عنه خصوصية في الإلهام والفراسة في ثلاثة مواضع :

أحدها: حين اتفق رأي الجميع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك مقاتلة أهل الردة بسبب منعهم الزكاة وثبت هو على قتالهم فأصاب رأيه ،ورأى الجميع بعد ذلك أنه الحق .

الثاني: عند خلافه رأي الجمهور فيما رأوا من رد جيش أسامة ، وقوله : لا أحل عقدًا عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

([1]) انظر : ابن تيمية والتصوف :صـ ١٠٣ ، د / مصطفى حلمي ، ط دار الدعوة بالإسكندرية ، أبجديات التصوف الإسلامي :د / محمد الغزالي ، صـ ٢٩٢ .

([2]) سورة الأنبياء: من الآية ٩٠ .

([3]) ابن تيمية والتصوف :صـ ١٠٥ .

([4]) سورة النساء :الآية ٦٩ .

([5]) انظر : اللمع للطوسي :صـ ١١٦ .

الثالث : قوله لعائشة رضي الله عنها : إني كنت نحلتك نحلًا وإنما أخواك وأختاك ، وما عرفت عائشة إلا أخوين وأختًا ، وكانت له جارية حبلى فقال : لقد أُلقِي في روعي أنها أنثى ، وهذا دليل على الفراسة والإلهام وهما من المعاني التي اتصف بهما أهل الحقائق وأرباب القلوب من الصوفية [١] .

وهكذا كانت حياة أبي بكر الصديق رضي الله عنه منبعًا عذبًا ينهل منه الصوفية فهو إمام أهل التحقيق على ما قال أهل الطريق ويشهد لذلك ابن تيمية حيث عده من السالكين لتفرده بمقام الصديق [٢] فهو الصديق صاحب النبي (صلى الله عليه وسلم) الزاهد العابد المجاهد الورع التقي الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « إنَّ أمنَّ النَّاس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا – غير ربِّي – لاتَّخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ... » [٣]

([١]) انظر : اللمع للطوسي :صـ ١١٨ .

([٢]) أنظر:الرأي الصواب في تصوف أهل السنة الأطهار: صـ ١٨٩ .

([٣]) صحيح مسلم :كتاب فضائل الصحابة : باب فضائل أبي بكر الصديق ، ح / ٢ (٢٣٨٢) .

* عمر بن الخطاب

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلًا أعلى للتنسك والزهد على الرغم من أن عصره كان عصر اتسعت فيه رقعة الدولة الإسلامية ،وكثرت فيه الفتوحات ،وزادت الخيرات ، ومع ذلك لبس المرقع وأكل كسرات الشعير، وحين طلبت زوجته أو ابنته الحلوى امتنع بحجة أنه لا حق له في بيت مال المسلمين إلا بالمعروف ، والحلوى زائدة عن حاجة الإنسان الضرورية، فلم يأخذ من بيت مال المسلمين اثناء خلافته الامايسد حاجاته الضرورية، مستشهدا بقوله تعالي "« وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ »[١] .

فقال : إني أنزلت مال الله مني بمنزلة اليتيم فإن استغنيت تعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف . [٢]

ومن مظاهر زهده في ملبسه ما روي عن أنس قال : لقد رأيت بعيني فى كتفي عمر أربع رقاع من قميص له .

وعن أسامة بن زيد عن أبيه قال : رأيت على عمر وهو خليفة إزارًا مرقوعًا في أربعة مواضع بعضها فوق بعض وما علمت له إزارا غيره . [٣]

وحين ظهرت طائفة أطلقت على نفسها اسم النساك وكانوا يسيرون في تؤدة ووقار ويتكلمون بقدر ، سألت سيدة من سيدات المسلمين وهي الشفاء بنت عبد الله عن أمر هؤلاء الناس أجيبت بأنهم طائفة النساك ، فقالت منكرة عليهم هذا : كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقًا » [٤] . فهذا النص يثبت زهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبعث عن طبيعة صار الزهد لها مقاما .

أما كونه من المحدثين المكلَّمين فدليل ذلك ما ذكر عنه أنه كان يخطب فصاح فقال في وسط خطبته : يا سارية الجبل – وسارية في عسكر على باب نهاوند – وقد سمع صوت عمر رضي

---

(١) سورة النساء :من الآية ٦ .

(٢) الطبقات الكبرى: لابن سعد جـ ٣ صـ ٢٧٦ .

(٣) المرجع السابق : صـ ٢٣٧ .

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام :جـ ٣ صـ ٨٧ .

الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو ، وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ فقال : سمعت عمر رضي الله عنه الله عنه يقول : يا سارية الجبل الجبل » [1] ،أالزم الجبل ،أو اعلم أن العدو مستتر خلف الجبل ، ونفذ سارية تعاليم عمر رضى الله عنه

والذي يؤيد ثبوت هذا الأمر عنده ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « قد كان في الأمم قبلكم محَدَّثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » . [2] والمحدَّث هو الملهم ، وقد اشتهر رضي الله عنه بالنقاء والطهارة وصفاء الروح حتى كان يخبر بالخبر فينزل القرآن الكريم موافقًا لرأيه ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال عمر : « وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر » [3] .

ومن مواعظه : الحديث عن محاسبة النفس في الدنيا قبل محاسبتها يوم القيامة حيث لا يخفى من الخلق خافية مستشهدًا بقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » [4] .

كذلك فطن إلى المعاني الرقيقة التي تتعلق بالذكر والورع والتوبة فذكر الله عنده شفاء بينما ذكر الناس داء ، كما ينصح بمجالسة التوابين لأنهم أرق أفئدة ، ومن أقواله : إن من قل ورعه مات قلبه . فهذه المعاني تتضمن المقامات والأحوال التي تكلم فيها الزهاد ، بل إنها تفوقها أصالة[5] . يقول الطوسي : " ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعاني اختصت به من اختيار لبس المرقعة والخشونة ، وترك الشهوات واجتناب الشبهات ، وإظهار الكرامات ، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ومحق الباطل ، ومساواة الأقارب والأباعد في الحقوق ، والتمسك بالأشد من الطاعات " [6] ، وإن كان قد أثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله : يا ليتني كنت خضرة تؤكل ، فقد أثر عنه هو أيضًا مثل هذا القول إذ قال : يا ليتني كنت نبتة

([1]) اللمع للطوسي: صـ ١٢٠ .

([2]) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، ح/ ٢٣ / (٢٣٩٨).

([3]) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، ح ٢٤ / (٢٣٩٩) .

([4]) سورة الحاقة :الآية ١٨ .

([5]) أنظر : ابن تيمية والتصوف :صـ ١١١ ، ١١٢ .

([6]) اللمع للطوسي، صـ ١٢١ .

تؤكل ، يا ليت أم عمر لم تلد عمر . وأخذ نبتة بسيطة وقال : يا ليتني كنت هذه التبنة ، يا ليتني لم أك شيئًا .

كما اشتهر أيضًا بكثرة البكاء فقد كان له خط في وجهه من كثرة سيلان دموعه ، كما واظب على العبادة وقيام الليل وكثرة الصوم ، ومما يدل على شدة زهده في الدنيا – بالإضافة إلى ما ذكرناه – ما ورد عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في شهادته للخلفاء رضي الله عنهم إذ يقول : أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأردته الدنيا ولم يردها . [1]

وسلوك عمر السابق هو ما تأثر به الصوفية من بعده

(1) راجع :الرأي الصواب في تصوف أهل السنة الأطهار، صـ ١٩٤ .

* عثمان بن عفان .

يقول الطوسي في استدلاله على أن أهل الحقائق اتخذوا عثمان بن عفان رضي الله عنه قدوةً لهم : " أما عثمان بن عفان فقد خُصَّ بالتمكين، والتمكين من أعلى مراتب المتحققين ، ومما يتعلق به من أهل الحقائق من أهل التصوف بعثمان بن عفان رضي الله عنه ما روي عن بعض المتقدمين أنه سئل عن الدخول في السعات فقال : لا يصح إلا للأنبياء والصديقين ، والدخول في السعة هي من أحوال الصديقين أن يكون داخلًا في الأشياء خارجًا منها وان يكون مع الأشياء بائنًا عنها كما سئل يحيى بن معاذ عن صفة العارف فقال : رجل كائن معهم بائن عنهم ... ومما يدل على تخصيصه بالتمكين والثبات والاستقامة ما روي عنه أن يوم قُتل لم يبرح من موضعه ، ولم يأذن لأحد بالقتال ، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قُتل ، والتمكين حال رفيع " . [1]

ومن مظاهر زهده أننا حينما نقرأ خطبه نرى أن أغلبها يدور حول الحث على الزهد في متع الدنيا وإيثار الآخرة ، فحينما تولى الخلافة لم يفرح بها ، بل قام يخطب في المسلمين منبهًا إياهم على المصير المحتوم على الجميع من أبناء الدنيا وحثهم على المبادرة إلى صالح الأعمال لأن الدنيا طويت على الغرور شارحًا لهم قوله تعالى : « فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » [2] . ومن مظاهر زهده أنه كان يطعم المسلمين الطعام الشهي ويأكل هو الخل والزيت ، وقد اتخذه الصوفية مثلًا للتضحية بالمال في سبيل الله فقد كان الإنفاق أحب إليه من الإمساك والخَرْج عنده آثر من الدخل ، ومما يدل على تحقق ذلك فيه تجهيزه لجيش العسرة حيث ساهم فيها بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ثانية فتصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ثم جاء بألف دينا فنثرها بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وسلم) فأخذها النبي(صلى الله عليه وسلم) وأثنى عليه .

أما عن تواضعه ومجاهدته لنفسه فيروى في ذلك أنه حمل .... من حطب من بعض بساتينه – وهو من أغنى الناس وأكثرهم ثراءً في ذلك الوقت – فكلمه البعض في ذلك قائلين له : لو دفعتها

([1]) اللمع: للطوسي، صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .

([2]) سورة لقمان : من الآية ٣٣ .

إلى بعض مماليكك أو عبيدك . فقال : لقد استطعت أن أفعل ذلك " . [1] وقد فعل ذلك تواضعًا ، ناهيك عن حيائه الذي صار مضرب الأمثال فهو بحق مرشد الصوفية وقائدهم ، يدلنا على ذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبوبكر فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له هو كذلك ، فتحدث ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه – قال محمد : ولا أقول ذلك في يوم واحد – فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبوبكر فلم تهش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟ فقال : " ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة " [2] .

أما عن عبادته وذكره فهو بحق قدوة لأهل الطريق في هذا المجال فقد كان يحيي ليله في ألوان العبادة كتلاوة القرآن وكثرة الذكر وقيام الليل وكثرة الدعاء إلى غير ذلك من ألوان القرب والنسك .

* علي بن أبي طالب .

هو الحواري الذي نشأ طفلًا يافعًا في رحاب النبوة وعاش في أنوارها ، وللإمام علي رضي الله عنه إشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارات وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وخصال شريفة خلق بها أهل الحقائق من الصوفية ، منها : أنه سئل بم عرفت ربك ؟ قال : بما عرَّفني به نفسه ، لا تشبهه صورة ، ولا يُدْرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس قريب في بعده بعيد في قربه ، فوق كل شيء ولا يقال تحته ، وتحت كل شيء ولا يقال فوقه ، أمام كل شيء ولا يقال شيء أمامه ، داخل في الأشياء لا كشيء ولا من شيء ولا في شيء ولا بشيء سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره .وهذا النص يدل علي تنزيه الإمام علي لله تعالي .

وقام رجل إلى علي رضي الله عنه فسأله عن الإيمان فقال : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد . ثم وصف الصبر على عشر مقامات وكذلك اليقين والعدل والجهاد فوصف كل واحد منها على عشر مقامات .

---

(1) انظر : اللمع للطوسي صـ ١٢٢،التصوف الإسلامي منابعه وأطواره، صـ٢٠.

(2) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عثمان بن عفان ح، ٢٦ / (٢٤٠١).

قال الطوسي : فإن صح ذلك عنه فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات . [1]

وإذا كان هذا الطريق يحق لمن كان قد أخذ كتاب الله بيده اليمنى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم بيده اليسرى وسار على ضوء هاتين الشمعتين [2] – كماي يقول أحد كبار رجال التصوف وهو الإمام الجنيد – فقد كان الإمام علي رضي الله عنه قدوتهم في هذا الأمر فقد عاش في خلافة الشيخين حياة الفقيه العابد ، وقد كان الشيخان يلجآن إليه في الفتاوى والأقضية المهمة التي كانت تلم بالمسلمين في هذا العهد ، فقد كان الإمام علي هو الوعاء الذي انقدح فيه العلم الإسلامي سواء أكان هذا العلم مستنبطًا عن طريق الذوق أو عن طريق العقل [3] .

وقد كان رضي الله عنه يُضرب به المثل في القضايا فيقال في المسائل الشرعية التيتحتاج الي فكر وإعمال نظر :" قضية ولا أبا حسن لها " ، وورد عنه في الزهد أنه كان يؤثر لبس المرقع من الثياب ، فلما سئل عن ذلك كان جوابه : في لبس المرقع خشونة القلب وقدوة للمؤمن . ومن هنا يظهر وجه الشبه وتظهر الصلة الوثيقة بين الصوفية والإمام علي في لبس المرقع ... ومما يؤثر عنه في ذلك أنه توجه لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بهذه الوصية : إن أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك ، واخصف نعلك ، وقَصِّر أَملك – يعني في الدنيا – وكل دون الشبع . [4]

ومن فضائله وعلو مكانته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » . [5]

أما عن خشيته وورعه وتقواه وخوفه من مولاه فيذكر عنه أنه كان إذا حضرت الصلاة تزلزل قلبه وتغير لونه واقشعر جسده ولما سئل عن ذلك قال : جاء وقت الأمانة ، أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا ، فلا أدري أَأُحْسِنُ ما احتملت أم لا ؟ .

([1]) اللمع للطوسي : صـ ١٢٤ ، ١٢٥ .

([2]) الرسالة القشيرية: جـ ١ صـ ١

([3]) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: جـ ٣ صـ ٩٣ .

([4]) راجع :الرأي الصواب في تصوف أهل السنة الأطهار :صـ ١٩٦ .

([5]) صحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب فضائل علي ح ٣٠ / (٢٤٠٤) .

وإذا كان حال المحبة من الأحوال التي عُرفت عند كبار الصوفية فقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم للإمام علي رضي الله عنه بمحبته لله ومحبة الله له فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم خيبر : " لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله " . قال راوي الحديث : فتطاولنا لها فقال : " ادعوا عليًا فأُتي به أرْمَد فَبَصَقَ في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه " . (١)

" وقد عاشت صورة علي بن أبي طالب الزاهدة العارفة في دوائر زهاد أهل السنة والجماعة وصوفيتهم حية زاهية ، وكان وسمه بربَّاني هذه الأمة صادرًا عن رجل من أهل السنة والجماعة وهو أبو الحسن البصري " (٢) .

فهؤلاء الأئمة الراشدون من خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم والقدوة والأسوة الحسنة التي سار على دربها كبار رجال التصوف السني ممن انقدح فيهم الجانب الروحي من إقبال على القرآن الكريم وتذوقه والراحة إليه وقيام الليل والتهجد والتقلب على المضاجع والذكر والزهد وغيرها من المعاني والصفات التي تحلى بها أهل الطريق فنرى مثلًا عبد الله بن مسعود يقول : القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم .

وهي كلمة تحتوي على معانٍ عميقة وقد حثت الصوفية ..... فيما بعد ذلك إلى تلاوة القرآن ومحاولة التفوز إلى داخل .... هذه المأدبة الربانية فتتفتح المعاني الذوقية على الصوفي ، ثم تتابع الزهاد وأهل التقوى من الصحابة أيضًا من أمثال أبي الدرداء فقد اتجه إلى الحث على طلب العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنظر في ملكوت الله تعالى للعظة والعبرة ، فالتفكير ساعة عنده خير من قيام ليلة ، والعمل المفضل لديه هو التفكير والاعتبار ، وصدرت عنه أقوال تعتبر بدايات لمذهب أهل التقوى والورع من الصوفية فيما بعد مثل قوله : " أذكر الله عز وجل في السراء يذكرك في الضراء ، فإذا أشرقت على شيء في الدنيا فانظر إلى ماذا يصير

والمشهور عنه أنه وقف في مواجهة تيار الثراء والترف الذي فشى بين الناس في دمشق محذرًا المسلمين من الإنغماس فيه قائلًا عن الدنيا : إنها دار كدر لا ينجو منها إلا أهل الحذر .

---

(١) صحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب فضائل علي .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: جـ ٣ صـ ١٠٠ .

والتزم بتطبيق ذلك على حياته ، وكذلك كان يكثر من ذكر الموت يستمد منه موعظة بليغة ، فهو يشعره بالخوف من يوم الحساب ، فينصح المسلمين بالعمل من أجله ، كذلك يحب الفقر ويفضله على الغنى لأنه يجعله متواضعًا لربه كما يحب المرض لأنه يكفر عنه خطاياه ، فيقول : " أحب الفقر تواضعًا لربي ، وأحب الموت اشتياقًا إلى ربي ، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي " ، وأبو الدرداء أكثر ما يعني بالتقوى وعبادة الله بإخلاص دون تظاهر أو غرور وتفضل العمل للآخرة والزهد في الدنيا لزوالها وفنائها[1] فهو قدوة لأهل التصوف في هذه المعاني .

وعلى نفس الدرب سار كثير من الصحابة أيضًا كأبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي ألزم نفسه بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول أبو ذر : " أوصاني خليلي بسبع : أن أنظر إلى من هو أسفل مني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أحب المساكين وأن أدنو منهم ، وأن أقول الحق وإن كان مراً ، وألا أسأل أحداً شيئاً ، وأن أصل الرحم وإن أدبرت ، وألا أخاف في الله لومة لائم ، وأن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنوز الجنة " [2] .

وترتبط شخصية أبي ذر الغفاري بفكرة الزهد التي جعلت اسمه بارزًا في هذا الاتجاه وذلك بسبب اختلافه مع معاوية بن أبي سفيان معارضًا مظاهر البذخ والترف ، واختلافهما في تفسير قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » [3] .إذ ذهب معاوية إلى أنها نزلت في أهل الكتاب ، بينما قال أبو ذر : نزلت فينا وفيهم .

وقد نظر إلى كل زيادة في المال على أنها فائض عن الحاجة ينبغي توجيهه للصالح العام ، وكان يطبق على نفسه هذه القاعدة بدقة ، فقد عرض عليه بعض القوم يومًا النفقة فاعتذر عن قبولها وقال : عندنا عنزاً نحلبها وأحمرا نحمل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة ، إني اخاف الحساب ، وظل يتقشف في معيشته حتى عاتبته زوجته في ذلك فأجابها : يا أم ذر إن بين أيدينا عقبة كؤود وإن المخفف فيها أهون من المثقل .

([1]) ابن تيمية والتصوف : صـ ١٢٤ .

([2]) الطبقات الكبرى لابن سعد: جـ ١ صـ ٢٢٩ .

([3]) سورة التوبة من الآية ٣٤ .

ومن المعاني الروحية التي أخذها الصوفية عنه أيضًا نصحه للناس بأن يحيوا حياة العبادة والتقرب إلى الله تعالى ، إذ يقول : يا أيها الناس إني لكم ناصح ، إني عليكم مشفق ، صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور ، وصوموا في الدنيا لحر يوم النشر ، وتصدقوا مخافة يوم عسير ، [1] وهو منهج في الرياضة الروحية سار عليه أهل الطريق اقتداءً بأبي ذر وبكثير من هؤلاء النجوم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء من بعدهم التابعون فساروا على نفس دربهم في الزهد والورع وكثرة العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى فكانوا خير خلف لخير سلف .

ومن ثم كان القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهدي الصحابة ومن سار على دربهم من التابعين هي المصادر التي أخذ منها وسار على دربها أهل الطريق من أصحاب التصوف السني ، ومع ذلك ذهب بعض المستشرقين ومن سار على دربهم إلى القول بنسبة الحياة الروحية في الإسلام إلى مصادر أخرى أجنبية .

([1])ابن تيميه و التصوف د/مصطفي حلمي ١٣٢ص

الخاتمـــــــــــة

١- وفى خاتمة هذا البحث يمكننا القول بأن التصوف الإسلامي فى جوهره معان روحية وتجربة ذاتية قامت على أصول من الكتاب والسنة وتَمَثلَ فى بدايته الأولى فى هذه الحياة الروحية التي عاشها الصحابة الأوائل ومن سار على نهجهم ممن أتى بعدهم من التابعين ، ومن ثم كان القرآن الكريم وحياة النبي ﷺ وحياة الصحابة الكرام وما كانت عليه هذه الحياة من زهد وعباده وعمل وسلوك وأخلاق مُثُلا صادقة تعبر عن المنبع العذب الصافي الذي سار على نهجه أهل الطريق من أصحاب التصوف السني .

٢- ليس كل صلة تاريخية أو تشابه فى الأمور الظاهرية عند الأديان الأخرى وخاصة المسيحية تدل على تقليد هؤلاء الزهاد لأصحاب هذه الديانات فالغاية أو المقصد يختلف تماماً عند هؤلاء وأولئك كما أن التشابه فى بعض الأمور الظاهرية كلبس الصوف لا يرجع إلى التشابه بل يرجع إلى ظروف البيئة التي عاش فيها الزهاد المسلمون مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى كرهبان النصارى .

ومن هنا " فليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة إلى عوامل خارجية ونهمل بذلك العوامل الداخلية ، لأنه لا توجد فكرة من الأفكار ذات قيمة يكون لها سلطان على نفوس الناس إلا إذا كانت تمت إليهم بصله فإذا جاء عامل خارجي أيقظها ، ولكن لا يخلقها خلقاً " .

وعندما بحث المستشرقون فى أصل التصوف ذهبوا إلى أن مرده إلى هذا العامل الخارجي أو ذاك ونسوا هذه العوامل الداخلية . (١)

*أن الباحثين فى الحياة الروحية فى الإسلام من المستشرقين لم يكتبوا ما كتبوا عنها متابعين منهجاً موضوعياً ، فلم تكن غايتهم معرفة حقيقة هذه الحياة بقدر ما كانت سلبها عن جوهرها الحقيقي وهو الإسلام فانتهت بحوثهم فى هذا المجال إلى أن حياة الزهد والعبادة عند المسلمين الأوائل كانت مرتبطة بكل شيء ما عدا الإسلام ، اثارتها المسيحية كما أقامتها البوذية والبراهمية وأثرت فيها الأفلاطونية المحدثة ..... وهكذا انتهى هؤلاء المستشرقين إلى القول بأن كل هذه

(١)التصوف الثورة الروحية فى الإسلام د/ أبو العلا عفيفي ص ٧٥

العوامل الخارجية إنما هي الأصل أو الجوهر أما الإسلام فلم يكن بشيء مؤثر فى حياة هؤلاء الزهاد أو نمط سلوكهم .

والحقيقة أن دخول النظريات الفلسفية فى العصور المتأخرة قد فصل بين طابعين للتصوف :-

- طابع سني دان بالشرع وأخلص له وحارب كل خارج ومبتدع وطابع مزج بين التصوف والفلسفة وأخذ من كل المذاهب ومزجها وخلطها فهو عنصر دخيل لا يمت للإسلام ، فالتصوف السني بريء من تهمة التأثر بالفلسفة والذي يتحمل هذا التأثر هو التصوف المتفلسف الذي لا يستطيع باحث إن ينكر رائحة الفلسفة وهى تفوح من بين نظرياته .

فهرس المصادر والمراجع

١- أولا :- القرآن الكريم

ثانيا :- ابن تيمية والتصوف د/ مصطفى حلمي ، ط دار الدعوة – الإسكندرية

٢- أبجديات التصوف الإسلامي د/ محمد حسين موسى الغزالي ، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٩ م .

٣- إسلام بلا مذاهب ، د/ مصطفى الشكعة ، ط الدار المصرية اللبنانية الطبعة الثالثة عشر ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .

٤- الإستشراق رسالة استعمار تطور الصراع الغربي مع الإسلام د/ محمد إبراهيم القيومى ط دار الفكر العربي ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

٥- أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء السنة د/ مصطفى حلمي ، ط دار الدعوة الإسكندرية

٦- التصوف الإسلامي نشأته ومذاهبه د/ محمد محمود أبو قحف ط دار الإسراء ، ط ٢٠٠٧ م –

التصوف فى الأدب والأخلاق وذكى مبارك .

٧- التصوف الإسلامي بين أنصاره وخصومه د/ عبد الرحمن المراكبى.

٨- التعرف لمذهب أهل التصوف لأبى بكر محمد الكلابازى ط المكتبة الأزهرية للتراث ، ط ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

٩- تلبيس إبليس لأبى الفرج بن الجو زى ، ط دار المنار القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

١٠- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن احمد بن أبي بكر القرطبي ط مؤسسة الرسالة بيروت لبنان الطبعه الأولي ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م .

١١- جامع البيان عن تأويل آى القرآن لإبن جرير الطبري .

١٢- حركة التصوف الإسلامي د/ محمد ياسر شرف ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦م .

١٣- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين د/ محمد الغزالي ، ط مطبعة نهضة مصر الجيزة الطبعة العاشرة ٢٠١٠م.

١٤- الرأي الصواب فى تصوف أهل السنة الإطهار .

١٥- الرسالة القشرية لأبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري النيسابوري ت د/ عبد الحليم محمود ط المكتبة التوفيقية

١٦- الصلة بين التصوف والتشيع ، د/ كامل مصطفى الشيبى ، ط الأندلس بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٢م .

١٧- الطبقات الكبرى لابن سعد الواقدى ، د دار الفكر العربي .

١٨- العقيدة والشريعة فى الإسلام ،اجناس " جولد تسهير " ، ترجمة د/ على حسن عبد القادر ، ط دار الكتاب العربي بمصر .

١٩- فى التصوف الإسلامي وتاريخه نيكلسون، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي ، ط مطبعة الأتراك للترجمة والنشر القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٢م .

٢٠- اللمع فى تاريخ التصوف الإسلامي، لأبى نصر عبدالله بن على السراج الطوسي ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

٢١- مقدمة ابن خلدون ، ط مؤسسة المعارف بيروت ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

٢٢- المنقذ من الضلال للأمام أبى حامد الغزالي ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، ط دار المعارف .

٢٣- الموسوعة الغزالية فى التصوف والصوفية، د/ محمد حسين الغزالي ط الزقازيق .

٢٤- موسوعة التصوف الإسلامي ،د/ عبد الله الشاذلي ط دار الافاق العربية .

٢٥- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة ،د/ محمد السيد الجليند ، ط مكتبة الزهراء القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٢٦- نشأة الفكر الفلسفي فى الإسلام، د/ على سامي

٢٧- النشار ، ط دار المعارف .

محتويات البحث

الموضوع

المقدمة

المحبث الأول : معني كل الشبهة ، الإستشراق ، التصوف

معني الشبهة

معني الإستشراق

معني التصوف

المبحث الثاني :شبهات المستشرقين حول مصادر التصوف الإسلامي

المصدر اليوناني

المصادر الهنديهة و الفاريسة

المصدر المسيحي

تشابه حيات الزهد عن المسلمين الأوئل بحياة رهبان النصاري

تأثر النبي صلي الله عليه وسلم قبل البعثة

لبس الصوف

تأثر الزهاد الأوئل بقصص الزهد الإنجيلية

ضهور طائفة البكائين

المبحث الثالث : المصادر الداخليه للتصوف

ا- القراءن الكريم

ب – السنه النبويه المطهره

ج- حياة الصحابة

الخاتمة

محتويات البحث